أولا: شرح بردة المديح

وقصيدةُ البُردة من قافية الميم، وهي من أشهر شعر البوصيري ﷺ وتعرف بالبُردة أو بالبُرأة، وقد وَفَد بها على النبي ﷺ وهو مريضٌ ، فَعُـوفي من وقته وساعته.

obeikandl.com

(١) أمِن تذكر جيرانٍ بـذي سَـلَمِ مَزَجْتَ دَمْعًـا جرى مـن مُقْلـةٍ بـدَمِ

أيُّها المُحب العاشق، أنت تبكي، وهل بكاؤك هذا، سببُه أنكَ تذكرتَ جيرانًا لك سابقين بذي سلم "وهو اسْم يطلَقُ على عدة مواضع"، وهو في الأصْل شَجَرُ ورقة القرْظ الذي يُدبَغُ بِهِ، وبِهِ سمي هذا الموضع، ودمعُكَ يجري على خديكَ مزيجًا بين الدّم والدمع، فَمقلة عينكَ التي أفرزت هذه الدُّموع، أفرزتها مختلطة بالدم، وذلك من حُرقة ما تُعانيه؟

(٢) أمْ هبَّتْ الريحُ من تلْقاءِ كاظِمـةٍ وَأَوْمَضَ البرْقُ في الظلْماءِ مِن إضَـمِ

إنْ ما بِكَ، إنْ لم يكُنْ من تذكر جيرانك بذي سلم، فرُبما يكونَ بسبب هُبوب الريح من ناحية كاظمة، وهي اسمُ موضعٍ بينَهُ وبين البصرة مرحلتان، وفيه رِكابٌ كثيرة، وقد أكثَرَ الشعراءُ من ذكره، وقيل أيضًا إن موضعه بِقُرْب المدينة المُنورة، أو أنْ السَّبب الثالث هو البرقُ الذي لَمع لَمعانًا خفيفًا، وهُو عند أهل السُّنة والجماعة سَوْطُ المَلَكِ الذي يُسوقُ السحابَ إلى الجهات التي يُريدُها الله سبحانه وتعالى، وهذا البرق لمع في الظلام آتيًا من جهة إضَمْ، وهو ماءٌ في الطريقُ بين مكة واليمامة، فلقد تذكرْتَ أيُّها المحب عهودَ أيام الوصالِ في تلك الليالي والأماكن العوالي، وكذا هُبوب الرياح من تلك البِطاحِ، ولمعان البرق مهيجًا للغرامِ ومحركًا للبكاءِ، الذي هو سبب للمزج بين الدّمع والدْم.

(٣) فَما لعينيكَ إنْ قلْـتَ اكفُفـا هَمَتـا وَمَا لقلْبِكَ إنْ قلْـتَ اسـتفق يَهِـمِ

فماذا جرى لعينيك، إنْ قُلْتَ لهما: احبسا عن البكاء أو اكفُفا الدمْعَ لم يحبسا ولم يكفا، ولم يُطاوعاك، وإنما سالتا دمعًا، فإنْ أنكرْتَ السَّبب، وكان إنكارُكَ حقًّا، فأي

سببٍ أوجب لعينيك لـمَّا قلت لهما: اكففا بُكاءَكما جرى منهما الدمْعُ وسالَ، وما لقَلْبِكَ إنْ قلت له استفق وأفقِ من غَمرتك وغفوتك هامَ على وجهه ولم يُجب.

(٤) أيحسبُ الصَّـب أن الحُـبَّ مُنكَـتِمٌ ... مـا بـيْنَ مُنسَـجِمٍ منْـهُ ومُضْـطَرِمِ

هَلْ ظَنَّ العاشقُ المشتاقُ أو المُستهامُ الذي ولَهَهُ الحب، فالحب هو الميلُ القلبي الغالِبُ على الشيء، كما للعطشان حَالَ شدَّة عطشه إلى الماء، فهو مُنكتمٌ عن الناس، ودلالة اضطرامِ القلبِ على الحب بسبب ما يلازمُهُ من اصفرارِ الوجْهِ وتغيُّره، وسخافة البدَنِ وتبذله، وكأن المسئولَ قالَ للسائِلِ: سَلَّمنَا إنكارَك على الصَّب ظنه خَفَاءَ حُبه، لكني لستُ بصَبٍّ، فما دليلك على ذلك؟ فأجابَهُ السائلُ بالبيت الذي يليه:

(٥) لولا الهَوى لم تُرِقْ دمعًا على طَلَلٍ ... ولا أرِقْـتَ لـذكرِ البـانِ والعَلَـمِ

مِنْ ذكر الأطلال أجريْتَ الدمْعَ، وما دفَعَكَ إلى ذلك إلا الهوى، وهو مقصودُ الحب، والميل الدائم للمحبوبِ، فما أرقته من دَمْعٍ على هذا الأثر الدارسِ من آثارِ المحبوبِ، دليل على شدة تَعلقك بِهِ، ونذكرُ هنا ما قالَهُ قيسٌ في حق ليلى:

فَـلاَ حُـب الـدِّيارِ شـغفْنَ قلبـي ... ولكنْ حُـب مَـنْ سـكَنَ الـدِّيارا

ولا أرقت أيها المُحب لذكر البانِ، وهو شجرٌ في بِلاَدِ الأحبة، والعلَم هو الجبل، وهو أيضًا من جِبال الأحبة، ويُحتمل: ولا أرقت لذكرهما في شبه المحبوب بهما في طُولِ القامةِ وحُسْنِ الهيئة وطيبِ الرائحة، وإنما أورثه ذكرهما السَّهر.

(٦) فكيفَ تُنكر حُبًّا بعد ما شـهِدَتْ ... بِهِ عليك عُدُولُ الـدَّمْعِ والسَّـقَمِ

قُلْ لي أيها المحب: كيف وَصَلَ بِكَ الأمرُ إلى أن تجحد وتنكر هذا الحب الجارف

الذي ظهرتْ عليك آثاره، والشهودُ من عندك، وليسوا غرباء عنْكَ، فهذا الدمْعُ السَّائلُ من عينيكَ لذكْرِ الطَّلَلِ أو تذكرِ الجيرانِ، وكذلك المرضُ واصفرارُ الوجه، والهُزالُ الذي اعتراك وظهر عليك للعيان، كل هؤلاء شهود عُدُول عليك، فلا تحاولْ إنكارَ ما حَلَّ بك، لأنه لم يكُنْ باطنًا فيك وإنما أصبح ظاهرًا عليك.

(٧) وأثبتَ الوَجْدُ خَطَّيْ عبرةٍ وضَنًى مِثْلُ البَهَارِ على خَدَّيْكَ والعَنَمِ

وكانَ الوجدُ من الآثارِ الواضحةِ والشهودِ الحاضرة على حالكَ أيها المُحب، وهو حُرْقة القلب عند مفارقة المحبوب، أو عند رؤية ما يُذكر به، هذا الوجْدُ أثبت وأوجَدَ خَطيْنِ من دمعكَ الذي جرى من عينيك، كما أثبت أيضًا الضنَى، وهو المرض الذي يستلزم صُفْرة الوجهِ وضَعْفَ البدنِ، مما ترك آثارًا على وجهك شبيهة بالبهارِ، وهو الوَرْدُ الأصفر، فظَهر على خديك، وكذلك العَنَم وهو شجرٌ لَهُ أغْصَانٌ حُمْرٌ، فكانَ هذانِ الخَطَّانِ كالعَنَمِ في الحُمرةِ لامتزاجِ الدمْعِ بالدَّمِ، وأثر الضنى بالبهارِ في الصُّفرة.

(٨) نَعَمْ سَرَى طيفُ مَنْ أهوى فأرَّقني والحُبُّ يعترضُ اللَّذَّاتِ بالألمِ

ولما كانت هذه الحُجج واضحة، وتدُل على كل شَرف، أفصَحَ المخاطب مُقرًا بلسانِ المقالِ، كما أقر بِلسانِ الحال، فقالَ: نَعَمْ، أي صدَقْتَ أيها السَّائِلُ في كل ما نسبتني إليه، فإني إنما بكيْتُ وسقمت من تذكُرِ الجيرانِ الذين كنتُ فارقتهُم، وتسليتُ عنهم بعض التسلي، وسببُ هذا التذكُر أنه قد سرى خيالُ محبوبي إليَّ ليلاً أثناءَ نَوْمي، فانتبهتُ لذلك فزِعًا مَرْعُوبًا لِما استقر بي من الفزع بسبب لقائهم، ظنًّا مني أن ذلك في اليقظة، فلما تبيَّن لي أنّه حُلمٌ عادَ إليَّ ما كنْتَ تسليتُ عنه بعض التسلي، مما أثر فيَّ فأسهرني ومنعني من النوم، والحب من طبيعته يحُولُ دونَ تحقيق اللّذة والاستمتاع بالألم، وقد قيلَ: اللّذة دَفْعُ الألَمِ كالأكْلِ لألم الجوع، فكأنه قال: كانَ لي قبل طروق

خيالهم التذاذٌ بالنوم الموجب لراحة بدني، عند مَنْ يرى اللذات وُجودًا بنفسها، لاَ أنها إضافية، أوْ يُسليني عن ألم فراقهم، عند مَنْ يراها دَفْعَ الألمِ.

(٩) يَا لاَئِمي في الهوى العُذري معذرةً مِنِّي إليْـكَ وَلَـوْ أنْصَـفْتُ لَمْ تَلُـمِ

ثُمَّ لَمَا أقر بالحُب وصدقةُ فيما نُسبَ إليهِ واختبرهُ بسببِهِ، رَجَعَ باللومِ عليه فيما لاَمَهُ بِهِ، فقال: يا عاذلي باللومِ في الهوى العُذري، وهو المنسُوبُ إلى بني عُذْرة، وهي قبيلةٌ من اليمن، كانَ مَنْ عشق منهُم ماتَ في عشقه، فاقبلْ أيها العاذِلُ وخُذْ معذرةً مني، وإنّك إنْ كُنت مُنصفًا وتقضي بالحق والعدل، ما وجّهْتَ إلي اللوم، لكنك لَمْ تُنصفْ. وخصَّ الهوى بالعُذري لصدقهم فيه، أو رقةِ قُلوبِهم، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنّهُ ينبغي للمُحب في الله استغراقُ عُمرهِ دأبًا في الطاعة، وأنْ لا يملَّ ذلك أصْلاً.

(١٠) عَـدَتْكَ حَـالي لاَ سِرِّي بِمُسْـتَتِرٍ عَنِ الوُشَـاةِ وَلاَ دَائـي بِمُنْحَسِـمِ

لقد جاوزتْكَ الحالُ التي كنتُ عليها، وكأنَّ العاذِلَ قالَ حين استفهمه: نَعَمْ جَاوزْتني، فقالَ الصَّب: خُذْ عِلْمها مني، إنْ أمري الخفي ليس بمُنكتم عن الوُشاةِ الذين هُم أعْدائي، لأن الواشي، هو الذي يكذب حين يبلِّغُ الحديثَ ويُزينُهُ، إنْ مَرَضي في الحب ليس بمنقطع عني فيُرجى زَوالُهُ، فإنكَ لم تصبْ بمصيبتي، فتعلمُ مقدارَ ما أنا فيه، ولو أصبت بِهِ ما عذلتني، ولقد عبَّرَ عن العشق المستولي عليه، بالسر تارةً، لأنه يُكتمْ، وبالداءِ مرَّةً أخرى باعتبار احتراق القلب المفضي إلى الهلاك الناشيء عنه، ولما أبْدَى العاذِلُ عذلَهُ في صورةِ النصحِ فقد رَدَّ عليه بالبيت التالي:

(١١) مَحَّضْتني النُّصْحَ لكنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إنَّ المُحبَّ عن العُذَّالِ في صَمَمِ

ولما كان العذلُ أبغَضَ ما يكونُ إلى المحب على أي حالٍ كانَ، قالَ لَهُ: لقد أخلصتَ لي النُّصْحَ بِزَعمك، وأنَا لاَ أسلِّمُ بذلك، وسأعتبر نفسي قد سلَّمتُ بِهِ، لكني لستُ أسمعُهُ منْكَ. وعلَّلَ عَدَمَ سَماعِهِ بقوله: إنْ المُحبَّ عن العُذال في صَمَمٍ، أي أنَّه لا يسمعُ عَذَلَ اللوَّامِ.

(١٢) إني اتَّهَمْتُ نَصِيحَ الشَّيبِ في عَذَلٍ والشَّيْبُ أَبْعَدُ في نُصْحٍ عن التُّهَمِ

أَمْسكْ أيها العاذِلُ عن نُصْحك فإنِي بدَوْرِي مُتَّهم لَكَ، فقد اتهمت مَنْ لا يُتهم، فقال: إني نسبتُ إلى التهمة والكذب في الكلام نصيحَ الشيب أي نصيحةَ البياض الذي يعلو الشعر، فهو مُنذرٌ لي بقُربِ الأجلِ، وحُلُولِ المَوْتِ، المَوْجِبِ لاشتغالِ العبْد بما يُقربَ إلى الله زُلفى، ويورثُهُ لديْه حُسْنَ العُقبى، فليسَ بعد بياضِ الزرع، وذهاب الخضرة عنهُ، إلاَّ حصاده، وكأنَّ الشَّيب يقولُ للمحب:

اترك ما أنت عليه من الهوى، واشتغل بما يُدْنيكَ من المَوْلى، كصُورةِ ما يُبديه العاذلُ في نصحه، فما أحسن ما قالَ قمرُ الدولة:

لمـا رأيـتُ الشـيْبَ في الشَـعْرِ قـد لاَحَ، صـحتُ: وَاحُـزني
هـذا وحـقُّ الإلـه أحسـبه أوَّلُ خـيط سُـدى مـن الكَفَـنِ

(١٣) فَإنَّ أَمَّارَتي بالسُّوءِ ما اتعظتْ مِنْ جَهْلِهَا بنَذيرِ الشَّيْبِ والهَرَمِ

فإنَّ أمارتي بالسُّوء، وهي نفسي، وهي مسئولةٌ بسلطانها على البدن، تصرفني في شهواتها، إلاَّ أن يمنعها وازعٌ أو مانعٌ عقلي أو شرعي، فنفسي أمارةٌ مأمورة، والنفسُ

الأمارة هي أوَّلَ درجات النفس، والتي هي على الترتيب: الأمارة، ثم اللوامة، ثمَّ المطمئنة، ثُمَّ الراضية، فالمرضية، فالملهمة، ثمَّ الكاملة.

والنَّفْس الأمارة هي الهوى، وهي المذكورة في قوله تعالى: في سورة يوسف ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. إنَّ هذه النفس الأمارة لم تتعظ بتلك العلامات والأمارات متمثلة في النذير الإلهي بالشيب وكبر السن.

قال جعفر الصادق ﷺ : "مَنْ لا يَتهم نفسهُ على دوام الأوقاتِ ولم يُخالفها في سائر الحالات كان مغرورًا، ومَنْ نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها، فالنفسُ مجبولة على سوء الأدب، والعبْدُ مأمورٌ بملازمته جهده، فعلى العْبدِ إعادة النفس إليه، فمن غَفَلَ عن ذلك، فقدْ أطلق عَنَانَ النفسِ وغَفَلَ عن الرِّعاية".

(١٤) وَلاَ أعَدَّتْ مِنَ الفعْلِ الجميلِ قِرى ضَـيفٍ أَلَمَّ بـرأسي غـيرَ مُحتشِـمِ

لم تهيئ النفسُ من الفعل الجميل الحسن ضيافة لضيف نزلَ بها، وهو غير مُقيم إقامةً كاملة، إذْ أنْ من أَدَبِ الضيفِ أنْ لا يُكثر من الإقامة عند مُضيفه، وقد شُبه الشيبُ بالضيف، ولما كان الشيب نذيرًا بانقضاءِ العُمرِ، صارَ بلسان حالهِ كالطالبِ للمُبادرة بالأعمالِ الصالحة التي هي زَادُ الآخرة، ولقد اعتذرَ عن عدم قبولِ نُصْحِ الشيبِ بعدم قبولِ النفسِ الأمارة. وأنه كانَ يرتقبُ قبل حلوله لينزجر، وينتهي عما هو فيه.

(١٥) لَـوْ كُنـتُ أعْلَـمُ أنّي مـا أوقـرهُ كتمـتُ سِرًّا بـدا لي منـهُ بـالكَتَمِ

إن الأمر لم يكُنْ كما نويتَهُ للنفسِ الأمارة ولغلبتها، فقد ندمْتَ على عدم كتمانه عند ظهوره، فإني لم أوقره بعد نزوله بي بترك فعل القبيح استحياءً منه كما نويت من قبل، فقد

أخفيت سرًا ظهر لي منه بالكتم خضبًا أو بغيره مما يُخضب به، والكتم ليس من الكتمان وإنما هو نباتٌ يخلط بالحناء ويُخضب به الشعرُ فيقني لونَه، وما بدا من الشيب عُبر عنه بالسِر، لأنه كانَ قبل ظهوره خفيًا، أو لأنهُ منذرٌ بقُربِ الأجلِ الذي كانَ خفيًا، ولم يكن سرَّه بمنكتم ولا مُستتر، لأن ذلك هو الشاهدُ بهواهُ من دمعه ومن أرَقه وجَواه.

(١٦) مَـنْ لي بِـرَدِّ جِمـاحٍ مِـنْ غَوايتهـا كَـمَا يُـرَدُّ جِمَـاحُ الخَيْـلِ بـاللُّجُمِ

ثُم استفهم عَمَّن يتكفلُ لهُ برد جماحِ نفسه الأمارة بالسُّوءِ بالمواعِظ الحسنةِ، فقال: مَنْ كانَّ لي بالإمدادِ والإعانة وذلك بصرفٍ ومَنْعٍ من غوايتها وضلالتها، وهو إنما استخدم كلمة جماحَ مرتين، مشبهًا محاولة رد النفسِ عن غوايتها برد الخيل عن سرعتها وإعادتها لحالها السابقة.

(١٧) فَلاَ تَرُمْ بالمعاصي كَسْـرَ شـهوتها إنَّ الطعـامَ يقَـوِّي شـهوةَ الـنَّهِمِ

ولمّا أمر برد النفس عن جماحها باللُّجَم القوية، عَدَلَ عنه إلى السياسة الهينة حتى لا ينفر، فلا ترجُو أيها الصالحُ للخطابِ، أن ترُدها عن غيها بارتكابِ المعاصي، فإنْ تماديها في المعصية سبب اعتيادها عليها لأنها ألفتْ ذلك، بلْ ينبغي قلعها منها جملةً واحدة كَرَد اللجامِ للجموحِ، وإن المعصية هي الإتيانُ بالمنهيات، وكَسْرُ الشهوةِ، وهو تفريق أجزاءِ الشيء بعضها عن بعضٍ بالقمعِ العنيفِ، ودفعها عن طلب شيء تراهُ لذيذًا حسًا أو وهمًا، إذن فقد شُبهتْ الشهوة بشيء يتأتى كسْرهُ، ثم أثبتهُ لها، وإنَّ الطعام وهو كُلُ ما يؤكل بقوة البدن ودفع الجوع غالبًا مما يقوي شهوة شديد الرغبة للأكل مع الحرص الشديد عليه، وذلك لذوقه الطعام فانبعث حرصه عليه ومكّن حبه له بخلاف ما إذا رفع من بين يديه، فإنه لا يجدُ ما يشتغلُ فيه فييأس منْهُ، وكذا النفسُ إذا حيل بينها وبين العصيان، يئستْ منْهُ وعادَتْ إلى الطاعة، واعترَض بأن النَّهم إنما يرغبُ في الطعام

عند حُضُوره ما لم يشبعْ منه، وإلاَّ قد أخذ حاجته، والعربُ تقولُ: "تَطعَّمْ تُطعَمْ" أي ذُقْ تأكل. والمعدة تتفتحُ دائمًا لما يُلقى فيها إلاَّ لمانع، وقُوتُها الجاذبةُ لا تزَالُ وإنْ امتلأتْ وخاصةً معدةُ النهمِ.

(١٨) والنَّفْسُ كالطفْلِ إنْ تُهْمله شَبَّ على حُبِ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطمْـهُ يَـنفطِمِ

فالنفسُ عند الصوفية ما كان متصفًا برذائِلِ الأخلاقِ وقبائح الأحوال، وهي عند غيرهم الرُّوح أو الدّمُ والجسد، وهذه النفسُ الأمارة كالطفلْ المولُودِ تمامًا، أو الذيِ لم يبلُغ سِنَ البلُوغ، وهو إنْ تتركه على حال الرَّضاع كبر، وحرص على حب الرضاع، لإلفِهِ لهُ، وإن تفصله عن الرضاعِ لا يصبر طالبًا لهُ بأي وجه من الوُجُوه، وقد كانَ قبْلُ يبكي فلا يسكُتْ إلاَّ بالرضاعِ، فلما فُطِم يئس منْهُ، وكذا النفسُ إنما تنفطم عن مألوفها برادِعِ قوي، ووازعِ إلهي، وقد سُئِلَ بعضهم عن الإسلام، فقالَ: "ذَبْحُ النفس بسيفِ المجاهدة"، ولما شبَّه النفسَ بالطفل، وهو لا يؤمرُ ولا يُنهى لعدم فهمه ذلك، وإنْ فهم لا يمتثل، إنما الشأن في إزاحته عن ذلك، وأنْ لا يُمكنْ منْهُ أمرٌ يصرفُ الهوى عن النفسِ حتى لا يجد إليه سبيلاً.

(١٩) فاصرف هَواهَا وحَـاذِرْ أَنْ تُوَلِّيَـهُ إنّ الهوى ما تَوَلَّى يُصْـمِ أَوْ يَصِـمِ

قبل أن يتمكَّن منك سلطان هوى نفسك، بادرْهُ حالة ضعفه على حسبِ الطاقة، ولم يقُلْ له: فاصرفْ النَّفْس عن هواها، لأنها لا تفهم هذا المعنى، أو تفهمه ولم تتمثله كالطفل، وهوى النّفس هو مُنَاها وشهواتُها، واحذَرْ وتحرَّزْ من أنْ تولّيه بإمرةٍ أو ولاية، فإنَّ الهوى إذا تولَّى قتل أو عاب، وهذا أمرٌ لا ينبغي أن يُوجَدَ، ولا يقعُ إلاَّ فَرْضا كما يُفرض المُحالُ.

(٢٠) وَرَاعِهَا وهي في الأعمالِ سائمة وإنْ هي استَحلتْ المرعى فَلاَ تُسِمِ

فعليك أنْ تلاحظ النفس وهي راعية في الأعمال الصالحة.

ولما كانَ للنفس حظ في بعض العبادات، فربما يلحقها الرِّياء، ويُمدحُ الإنسانُ من أجلِ فعلها، فهو يهواها لذلك، وهذا القصد قد يخفى على صاحبها، لذا نبه على ذلك بقوله: وإنْ هي استحلتْ المرعى، أي وجدتْهُ حُلْوًا فانهمكتْ، أو همَّتْ بالعُكوفِ عليه، فلا تخرجها لذلك المرعى حتى تتفقد دسائسها، لأنْ النفوسَ البشرية – إلا مَنْ رحم الله – لا تهوى الطاعة من حيثُ ذاتها، فإذا استجلبتها ومالتْ إليها أمكن أن يكُونَ ذلك لغرضٍ فيه، فيعودُ هواها كالمكروهِ المأمورِ بصرفها عنه، وقد شبه هُنا الأعمال بالكلأ في كثرة النَّفع، فإنْ هي لم تستحل المرعى، فدعها سائمة، وإن هي استحلته فَلاَ تدعها.

(٢١) كَمْ حسَّنت لَذَّةً للمرْءِ قاتلةً مِنْ حيثُ لَمْ يدْرِ أنْ السُّمَّ في الدَّسَمِ

إن النَّفْس كثيرًا ما زينتْ لذةً معينة للإنسانِ، من حيثُ لم يعلم أن السُّم قاتلٌ، إذا طُرِحَ في ماء أو طعام، فأكلهُ الإنسانُ ولم يتفقد باطنهُ مما دس فيه، وقد خَصَّ الدَّسم لأنهُ يعلو الأشياء، فيسترُ ما تحتهُ، كصُورة العبادةِ تسترُ ما بطَنَ من النيَّة الخبيثة، أو لأن الدَّسم لشدَّةٍ أو لسهُولة امتزاج السُّم به يخفي، إلاَّ على المتفقد اللبيب، كخفاءِ النيةِ في العبادات.

(٢٢) واخْشَ الدَّسائسَ مِنْ جُوعٍ ومِنْ شِبعٍ فَرُبَّ مَخمصَةٍ شَر مِنَ التُّخَمِ

ولَمَّا أشارَ إلى دسائس النفس وارتقابها غفلات صاحبها، حذر من ذلك، فقال: لابد أن تكون لديكَ خشية يشوبها التعظيم مما تجمعُهُ النفسُ، من المكر حَالَ تلبُسها بقليلِ العبادةِ، وعبَّر عنه بالجوعِ، وحالَ تلبسها بكثيرها، وعبر عنه بالشبع، فالجوعُ ألمٌ يعتري الحيوان من خلو المعدة من الطعامُ وضده الشبع، ومن باب تسمية الشيء بما

يؤولَ إليه، لأنّ قلتها تؤول إلى جوعِ صاحبها في الآخرة، وكثرتها تؤول إلى الشبع هناك، فرُب شدَّة جوع واحد شرٌ من جميع التخم، وذلك لإضرارِ الجُوعِ المُفرطِ بالقلبِ والروحِ والبدن، أمّا التخمة فمضرة على سبيل الغالبِ بالجسم.

والمعنى أنْ النَّفْسَ قد تُزين لصاحبها التعليل بما فيه من السلامة من الملل، وقصدها بذلك الراحة، وقد تُزينُ لهُ الإكثارَ، بما فيه من تكثير الثّواب، وقصدُها بذلك الشهوة حتى تبني عليها البأسَ.

(٢٣) واسْتفرغْ الدَّمْعَ مِن عَيْنٍ قد امتلأتْ مِـنَ المَحَـارِمِ والْـزَم حميـةَ النَّـدمِ

ولَمَّا حذْره من الدْسائس بالنسبة لما يأتي، أَمَرَهُ بعلاج دوامًا فارقهُ فيما مضى بقوله: صُب الدمْعَ من عينٍ أكثرتْ من المعاصي، وقد خُصَّتْ العينُ عن باقي الجوارِحِ، لأنَّ العينَ تنظرُ أوَّلاً، فتميلُ النفسُ للمنظور، وتتبعها الجوارحُ، ولَمَّا عَرَّفه بالدواءِ القاطعِ للداء، نبههُ إلى غذائه، حَالَ نقاهته منه فقالَ: فامنَعْ نفسك من العَوْدِ إلى المعاصي، وقد شبّه تَرْكَ المعاصي، بتركِ المريض ما يضُر بِهِ من طعامِ.

(٢٤) وخَالِفِ النفسَ والشيطانَ واعْصِهما وَإِنْ هُمَـا مَحَّضَـاكَ النُّصْـحَ فـاتَّهِمِ

ثمَّ يقولُ لهُ: وخالِفِ النفسَ الأَمَّارةَ، والمخالفةُ لها تكون بترْكِ الموافقة، والأخْذ بالطريق الآخر في حَالٍ أو قوْلٍ أو فعل، أمَّا الشيطان فهو كل متمرِّدٍ من الجن، قالَ الجاحظ: "الجني إذا كفَرَ وظلَم وتعدَّى وأفسد فهو شيطان، فإنْ قوي على حَمْلِ البُنيانِ والشيء الثقيل وعلى استراق السَّمعْ فهو ماردٌ، وإنْ زَادَ على ذلك فهو عفريتٌ".

فإنَّ مُخالفة النفس والشيطانِ مُطلقًا، سببُ الخلاصِ من المنهي عنه، والأمْنِ من الوقُوعِ فيه، فاجعل عدتك مُخالفتها مُطلقًا، لتأمَنَ من آفاتها، وإلاّ لاحتملَ أن تقع فيها

بغير شُعورٍ، وإنْ هُما أخلَصَا لك النصح، فرضًا، فاتهمها، ومثال هذا النصح أنْ تقُولَ النفسُ: متعني بهذه لأشبَعَ منها، وأتوجه إلى الطاعةِ فارغة، أو تقولَ هي أو الشيطان لـمُجِد في العبادة: إن الله غنيٌ عن عملك فاكتف بأصْلِ الإيمانِ، أو تقول للمُنهمكِ في المخالفة: قد اجترمْتَ ما لا يُقْبَلُ لك معهُ عملٌ.

وقد قال رسُولُ الله ﷺ: "ضعيفانِ يغلبان قويًا، النفسُ والشيطان".

(٢٥) وَلاَ تُطعْ مِنْهُمَا خَصْـمًا وَلاَ حَكَـمًا فَأَنْتَ تعرفُ كَيْدَ الخَصْـمِ والحكَـمِ

لا ينبغي لَكَ أن تنقاد وتتمثل في المطاوعة للنفسِ والشيطانِ، فإنّ أحدهُما خصْمٌ وعدوٌ لك، لأَنّهُ يُزينُ الإقدام على المعصية، وأنت مأمورٌ بدفع ذلك بعلمك بسوءِ عاقبتها، والآخر يظهر لك في هيئة الحكم، لأنه استولى عليك بسلطانه، فالمكلَّفُ يريدُ التنصُّلَ، والنفسُ أو الشيطان يزينان له البقاءَ والتسويف، وطول الأجل، فأنت تعرف كيدهما، خَصْمًا وحَكْمًا.

(٢٦) أستغفر الله مِـنْ قـولٍ بِـلا عمـلٍ لقد نَسبْتُ بِـهِ نَسْـلاً لِـذِي عُقُـمِ

وَلما حذرَ من غوائل النفسِ، وأمر بمخالفتها، خافَ على نفسه الرِّياء فقالَ: أستغفر الله، وأطلُبُ سترُهُ وتغطيته، وفي التعبير بِهِ إيماءٌ إلى أنه عمل من الذنب ما لا يرجُو عَفْوه، بل أخفاهُ، وعدم إظهاره مِنِ أجلِ قولٍ صَدَرَ منى بالأمرِ بالمعرُوفِ والنهي عن المنكر، غير مُلابس عَمَلٍ موافقٍ لَهُ من معروفٍ أَمْرتُ بِهِ، ومُنكرٍ نهيتُ عنْهُ، وناهيك بذلك قلَّة حياء وأكبر زللٍ، وللاستغفارِ فضلٌ كبير، وما أحسن قَوْل القائِل:

ولــو أنْ فرعَــوْنَ لمــا طغــى وقــالَ عــلى الله إفكًــا وزُورا

أنَـــابَ إلى الله مُســـتغفرًا لَمَــا وَجَــدَ الله إلاَّ غَفُــورا

لقد أضفتُ بِه – بسببِ القوْلِ – وَلَدا، أي لمن لا يقبلُ الوَلَدَ، أي أنْ مثلي فيما تصدَّيْتُ لهُ من الأمْر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتخلفي عن العمل بذلك مثلُ من ينسبُ الوَلَدَ للعقيم.

(٢٧) أَمَرْتُكَ الخيْرَ لكنْ ما ائتمْرتُ بِـهِ   وما استقمتُ فَمَا قوْلي لَكَ استقم

ولما كان ما مثل بِهِ نفسهُ غير ظاهرٍ لكل الناس، بالغَ في كشف القناع، فقالَ: لقد أمرتكَ بالخير الذي هو ضد الشر، وله عاقبةٌ محمودةٌ، لكني ما ائتمرتُ بِهِ وما اعتدلتُ، فما الفائدة من قولي لك: استقم، وقد ترتب عدمُ الفائدةِ على عدمِ الاستقامة، كأنهُ جعل عدم الاستقامة سببًا لعدمِ الفائدة.

(٢٨) وَلاَ تَـزَوَّدْتُ قبـل المـوْتِ نافلَـةً   وَلَمْ أصلِ سوىَ فـرْضي وَلَمْ أَصُـمِ

ما اتخذتَ زَادًا قبل سفر الموْت المفوتُ للطاعة، من صالح الأعمال، وهي التطوع، بعد أداءِ الفريضة، لأنْ الفرضَ قد لا يكفي، لاحتمالِ أن يكُونَ بِهِ نقصٌ، فيزول هذا النقص بالنافلة، ولم أصل سوى فرض، ولم أَصُمْ سوى فرض أيضًا، وأنَا في ذلك كحال مسافر يتخذ الطعام لينتفع بهِ فِي سفره، ويتخلصُ بِهِ من أَلَمِ الجُوعِ، وحُلولِ الهلاك.

(٢٩) ظَلَمْتُ سُنَّةَ مَنْ أحْيـا الظـلاَمَ إلى   أن اشتكَتْ قَدماهُ الضُّرَّ مِـنْ وَرَمِ

إنني بتركي طريقة سيد المُرسلين ﷺ ، وهو الذي أحيا ظلاَمَ الليل، بالصلاة، وجدَّ فيه إلى أن اشتكت قدماه من طُولِ قيامه الضرر، بسبب تورُّمها، ففي الصحيح عن المغيرة بن شعبة قال: قامَ رسولُ الله ﷺ حتى انتفختْ قدَماهُ، فقيل لهُ: أتُكَلِّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبكَ وما تأخر؟.. قال: "أفلا أكون عبدًا شكورًا؟"

فليعتبر العاقلُ بالمغفور لهُ، ولينظر هل يجد الغريق فيما أخطأ لنفسه عُذْرًا في التقصير، والشكوى إنْ كانتْ بلسان الحال، فلا كلام، فهذا هو حالي بترك سُنته الشريفة ﷺ.

(٣٠) وشَد مِنْ سَغَبِ أحشاءَه وطـوى تَحْتَ الحجارة كَشْحًا مُتْرفَ الأَدَمِ

وبعد ذكره ملازمة النبي ﷺ الصلاة، أخذ بذكر ملازمته الصيام أيضًا فقالَ: إنهُ من شدة جوعه ﷺ ربط حجرًا على بطنه وهو محتوى أحشائه، فلم يقتنع ﷺ بشد الأحشاءِ، بل طوى الكشحَ الناعمِ الجلد، تحت الحجارة أيضا، والمعروف أن الكشح الناعم إذا طُوي تحتها اشتد تألمهُ، فقد أصابهُ ﷺ من الجُوعِ ما يكونُ أشَدَ من هذا الألَمَ، فرامَ دفعه هذا الألم، وهذا غايةٌ في الرياضة، وفائدةُ الحجر تثقيل الجلد فيكثر انضمامُهُ على الأحشاء.

(٣١) ورَاودتْهُ الجِبالُ الشُّمُّ مِـنْ ذَهَـبِ عَـنْ نفسِـهِ فَأَرَاهَـا أَيَّـمَا شَـمَمِ

ولما ذكرَ من جُوعِهِ ﷺ ما ذَكر، خَافَ أن يتوهَّمَ سقيمُ القلب أنّ ذلك من فاقةٍ وعيلة، فيخالف قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ ﴾ [الضحى: ٨] دفعه بقوله: لقد راودته الجبالُ المرتفعاتُ الرؤوسِ عن نفسها، وعرضت عليه أن تكونَ من ذهب، وتسيرَ معهُ حيثُ سار، لكنه ﷺ أراها في أنفه الشمم، الدَال على الإعراض، وعدم الالتفات إليها رأسًا.

وقد رَوَى الترمذي أن رسُول ﷺ قالَ: **"عَرَضَ عليَّ رَبِّي أن يجعلَ لي بطحاءَ مكةَ ذهبًا، فقلتُ: لا يارب، ولكن أشبعَ يومًا وأجوعُ يومًا"** الحديث.

ثم بين أن إعراضَهُ عنها لم يكن من غنى، بل كانَ مع شدة الحاجة والضّرورة.

(٣٢) وأكـدتْ زُهـدَهُ فيهَـا ضَرُورتُـهُ إنْ الضّرُورَةَ لا تعدُو عـلى العِصَـمِ

ومما أكد تركهُ رغبةِ الدنيا وما يتعلّقُ بها، مع القُدرة عليها، العصمة التي منحها الله له، والعصمة اصطلاحًا "ملكةٌ نفسانيةٌ تمنع المُتصف بها من الفجورِ والمكرُوه، وعصمة الأنبياءُ حِفْظ الله إياهُم، وإنما لم تعدُ الضرورة ذوي العصم، لأنَّهم يتنزهُونَ معها عن أشرفِ الأشياءِ وأجَلِّها، فضلاً عن أحسنها وذووها هُمُ الأنبياء، وللصُّوفية في تعريف الزهد عبارات، كل عبر على حسب حالِهِ، فقيل: خُلُو الأيدي من الأملاك، والقلوب من التتبع.

وقيل: مَنْ صدق في زهده أتتهُ الدنيا وهي راغمة، ولذا قيل: لو سقطتْ قلنسوة من السماء، لما وقعت إلا على رأس من لا يريدها.

وأجمع ما قيل فيه: قولُ الداراني: "الزهدُ تركَ ما يشغلك عن الله"، وقولُ الشبلي: "أن لا يرى سوى الله تعالى".

(٣٣) وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة مَنْ لَولاهُ لَمْ تخرج الـدنيا مِـنَ العَـدَمِ

كيف يُتصورُ أن تدعو إلى اتباع الدنيا وزينتها ضرورة من بدونه ولولاه لم تخرج الدنيا من العدم إلى الوجود، ولقد ثبت أن وجوده ﷺ علة وجود الدنيا، فالدنيا بأجمعها مفتقرة إليه لافتقار وجود المعلول إلى وجود علّته، وإذا كانت ضرورته ﷺ لا تدعو إلى الدنيا، فينبغي لمن يكونُ على ملّته، وداخلاً في زمرة أمته أن يكُون كذلك.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فمحبته تعالى مشروطةٌ باتباع نبيه ﷺ، وكيف لا تزهد في الدنيا، وهي لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى منْها كافرًا شربة ماءٍ.

(٣٤) مُحَمَّـدٌ سَـيِّدُ الكَـوْنَيْنِ وَالثقلَيْـ ـنِ والفريقيْنِ مِنْ عُربٍ ومِنْ عَجَـمِ

هو محمد ﷺ الآمر الناهي، وسيدُ الكونين، المتولي للسؤدد، لكل أهل الكونين "الدنيا والآخرة"، وسيدُ الثقلين: الجن والإنس، سُمُّوا به لإثقالهم الأرض، وسيد الفريقين العربُ والعجم.

وهذا أبلغ رَدٍّ على من ينكرونَ سيادته ﷺ، فقد صحَّ أن عمر بن الخطاب حينما أعتق أبو بكر بلالاً ﷺ قال: "سيدنا أعتق سيدنا".

(٣٥) نَبِينـا الآمـر النَّـاهِي فـلا أحـدٌ أبَـرَّ في قَـوْلِ لا مِنْـهُ وَلاَ نعَـمِ

إنه ﷺ هو الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، بإرسال الله تعالى إيَّاهُ إلينا، فالآمر الناهي حقيقة هو الله تعالى، والآمرُ بالشيء هو الناهي عن ضده، وليس يوجدُ أحد يستطيع أن يبلغ بره ﷺ، أو يتفضل عليه في قول "لا" في حالة النهي، ولا قول "نعم" في حالة الأمر، فكما قال ابن جماعة: "لا أحد أصدق منْهُ في الخير بنوعيْه، وعبر عن المثبت "بِنَعم" وعن المنفى "بِلاَ" فهو أصدق الناسِ في خبره، ولذا يبادرُ إلى الفعل أو الترك دُون ترددٍ.

(٣٦) هُوَ الحبيبُ الذي ترجى شَفَاعَتُهُ لِكلِ هَوْلٍ مِنَ الأهْـوَالِ مُقْتَحَمِ

هو ﷺ المحبوبُ لله تعالى، ولملائكته وسائِرِ خَلقِه، وقد بلغت محبوبيته مرتبة لا يتصور المزيد عليها، لعدم الاعتداد والاعتبار بمحبوبية غيره، وهو لهذا يرجُو الجميع شفاعته عند مواجهة الأهوال، وعلى رأسها أهوال يوم القيامة، ومما يؤيدُ ذلك، حديث الشفاعة، حيث يلجأ الناس جميعًا إلى آدم فيعتذر عن الشفاعة، وكذلك نوحٌ، ثم

إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام جميعًا، ويُحال الناسُ إليه ﷺ فيقول قولَ الواثق من محبَّة ربه له "أنا لها ولكل كربٍ عظيم" إلى آخر الحديث.

(٣٧) دَعَـا إلى الله فالمُستمسِـكُونَ بِـهِ   مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَـيْرِ مُنفَصِـمِ

وجَّه الرسول ﷺ الدعوة إلى كل من بعث إليه من إنس وجن، فدعاهم إلى توحيد الله وطاعته والإقرار برسالته هو ﷺ، والذين تمسكوا بدعوته، واستجابوا لها إنما تمسكُوا بعهدٍ لا يمكنُ إلغاؤهُ أو إنكاره، وفي ذلك تلميحٌ إلى قول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

(٣٨) فَـاقَ النبيـينَ في خَلْـقٍ وَفي خُلـقٍ   وَلَمْ يُـدانُوهُ في عِلْـمٍ وَلاَ كَـرَمِ

لقد علاَ ﷺ على كل النبيين عليهم السلام في كل خَلق، وهي الصورة المدركة بحاسة البصر، وفي كل خُلُقٍ، أي كل سجية، بما طبع عليه من حميد الخِصَالِ المُدركة بالبصيرة.

وفي حديث رَوَاهُ الترمذي عن النبي ﷺ أنهُ قَالَ: "ما بعث الله نبيًا إلا حَسَنْ الوَجْهِ، حسنَ الصَوْتِ، وكان نبيكم ﷺ، أحسنَهم وَجْهًا وأحسنهم صوْتًا".

وما رواه البخاري عن أنس ﷺ قال: "كان النبي ﷺ أحسن الناس خَلْقًا، وأحسنهم خُلُقًا".

(٣٩) وكُلّهُم مِـنْ رَسُـولِ الله مُلْـتَمِسٌ   غَرْفا مِنَ البَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الـدِّيَمِ

وكَلهم من محمد ﷺ طالب من فيض بحر كرمه غرفا بيده، أو رشفًا وشرْبًا من

ديم كرمه أيضًا، واختيارُ الالتماس دون السؤال، رعاية أدبٍ مع الأنبياء عليهم السلام، والديم جمع ديمة وهو المطرُ الذي ليس فيه رعدٌ ولا برقٌ، يدوم يومًا وليلةً، والرشف، هو الأخذ بأطراف الشفةَ، وهي بمعنى "المص"، ووجْهَ تشبيه العلم بالبحر، الاتساع أو بعد الغورِ، أو إخراجُ الغائص جواهر الدُّرر، ووجه تشبيه الكرم بالديم ما يحصُلُ من النفع بها، وخص الرشف بالديم، والغرف بالبحر، لأنها تجري على سطح الأرض، فلا يجتمع فيها ما هو كالبحر حتى تفترق، فإن تفاوت المعارف بحسب تفاوت الاستعدادت، فما لا يستلزم اتحاد زمن وجودهم، ولا علمهم ببعثه ﷺ بعدهم، لذلك فهو حاصِل لهم مما أُعْلِموا به من مبعثه وصفاته .. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [آل عمران: ٨١].

(٤٠) وَوَاقِفُـونَ لَدَيـهِ عِنْـدَ حَـدِّهِم مِنْ نُقْطَةِ العِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ

وكُلهم ثابتونَ لديه عند الحد الذي حُدّ لهم، لا يتعدَّونه عِلْمًا وكرما، فقد تعددت أحوال الأنبياء مع حضرته ﷺ وهي علية، وبحيث يستلزم وقوفه وظهور فضله عليهم، ووقوفهم هذا إنما من نقطةٍ من بحرِ علمه وشكلة من ديم حكمِهِ، وخَصَّ النقطة بالعلم لأنّ بها تتميز ذوات الحروف المشتبهة الصور، والعلم خاصيته التميز، وأضاف الشكلة للحكم لأن فائدة الحكمة وضعِ الشيء في المكان الذي يستحقه على أكملِ وجْهٍ لئلا يختل النظام، وهذه فائدة الشكلة، لأنّ بها تُضافُ الحكم إلى صاحبها، ويزول اللَّبْسُ.

(٤١) فَهـو الـذي تَـمَّ معنـاهُ وَصُـورَتهُ ثُـمْ اصـطفاهُ حبيبـا بـارئُ النَّسَـمِ

لقد كمل ما يراد منه من علو المراتب وكريم الأخلاق والكمالات والأوصاف وكذلك كمل خلقهُ، فلما كان فائقًا على الكل خَلقًا وخُلقًا لا يقاربه نبي في الفضل، ولا يدانيه رسُولٌ في العقل، فهو الذي تَمَّ ظاهرًا أو باطنًا، والصورة ما تتعين بها الأعيان، وتتميز بها عن غيرها، ويصح أن يُرادَ من "معناهُ وصورتُهُ" روحانيَّته وجسمه،

أو علمه وعَمَلهُ أو أخلاقُهُ المرضية وعقائده، أو معاملته مع الخلق ومع الحق، أو علمه أن الصورة والمعنى يشملان ذلك كله، فيكون المعنى عن نهاية كمال للنبوة والرسالة ثم اختاره بعد تكميل الصورة والمعنى.

(٤٢) مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ في محَاسِنِهِ فَجَوْهَرُ الحُسْنِ فيه غيرُ مُنقسِمِ

النبي ﷺ مُبرأ، أي مُبعدٌ عن وُجود شريك مُشاركٍ في محاسنه الشريفة لأن حقيقته الكاملة كائنة فيه لأنه الذي تم خلقا وخُلقًا، ومعنى: "مُنزَّهٌ عن شريك"، أنه لا يوجد له شريك فيها.

وهذا البيت تأكيد للبيت الذي قبلهُ أتى بهِ لتقريره، وأنه صدرَ عنْ روية ودراية.

(٤٣) دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النصارى في نبيهمُ واحكم بما شئت مدحًا فيهِ واحتكِمِ

خطاب لغير معينٍ، أن اترك ما قالته النصارى في نبيهم عيسى عليه السلام، والادعاء أن يدعى شيئًا، وكثيرًا ما يُستعمل في الدعوى الكاذبة، وقد سُمي النصارى بهذا الاسم لنصرهم المسيح عليه السلام، وعليك الحكم بصحة ما شئت مما سمعت، وقد أتى بقوله: "واحتكم" استظهارًا على أن المحكُوم عليه بصحة مَدْحِهِ، يرضى بتحكيمك في ذلك، فيجعل لَكَ حيازَةَ الحكم.

(٤٤) وانْسُبْ إلى ذَاتِهِ ما شِئْت مِنْ شَرَفٍ وانْسُبْ إلى قَدْرِه ما شئتَ مِنْ عِظَمِ

إذا أردت تحقيق نسبة الشرف، فتوجه إلى مقدارِ منزلته ومرتبته، وهو الذي يستحق ذلك وهو أهل له، فإنَّ ذاته مخصوصة بالكمال، وكذلك قدْرُهُ مخصوصٌ بالعظم، عند النسبة والقياس.

(٤٥) فَإنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فيُعربُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

فإن فَضْلَ رَسُولِ الله ﷺ، زائدٌ على جميع الأنبياء، وغيرهم من الخلائق، وأظهر موضع الضمير لكونِهِ كالعَلَمِ في الفضل والشرف، وهو ليس له نهاية، ولهذا لا يتصور أن يُعرَب، والإعراب هو الإبانَة، فكمالاتهُ غيرُ متناهية، واختلف في أن كمالات الشخص الكامل متناهية أوْ لاَ؟ والأصح أن كمالاته غير مُتناهية، لأنة أبديٌّ، والمعارفُ التفضيليَّة غيرُ مُتناهية، فصَحَّ نَفْي الحَد والغاية، والضميرُ عائدٌ إلى الرسُولِ ﷺ، والمراد عن جميع فضله، وإلا فبيان بعضه ممكن، إلاّ أن يُقصد الإغراق.

(٤٦) لَوْ نَاسَبَتْ قَدْرَهُ آيَاتُهُ عِظَمًا أَحْيا اسْمُهُ حِينَ يُدْعى دَارِسَ الرِّمَمِ

المناسبة والمشاكلة والمشابهة، كَوْنُ الشيئين بحيث يمكن أن يوجد بينهما اعتبار الوحدة أو أكثر، وحاصلة الاشتراك بين شيء واحدٍ أو أكثر، وباعتبار ذلك الواحِدِ، يكون ضعفُ المناسبة وقوتها.

إنّ كل فردٍ من آياته، لو ناسبت قدره عظمًا، لأحيا اسمه الموتى، أي أحياه الله تعالى ببركة اسمه ﷺ، وإنما لم تكن الآيات مناسبةٌ لقدره الشريف، لئلاً تعيا القلوب والعقول عن فهمها، لو أتتْ مناسبةً لقدره، لقُصُورِ قدرنا عن قدرِه.

(٤٧) لَمْ يَمتَحِنَّا بِمَا تعيا العُقُولُ بِهِ حِرْصًا علينا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

لم يختبرنا ﷺ في التكليف والتفهيم بما تعجز العقول عن الاهتداء لوجهه، بما تكل به فلا تفهمه، وذلك لحرصِهِ على هدايتنا، فلم نشك فيما يلقى إلينا، فلمْ نتحير فيه من "الوهَمْ" وهو بمعنى التحير.. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء ١٠٧]. ولا رحمةَ مع التكليف بذلك.

وفي هذا البيت الثناء عليه ﷺ بكمال إشفاقهِ علينا، ورحمته لَنَا.

(٤٨) أَعْيا الوَرَى فهم مَعْنَاهُ فَلَيْسَ يُرى   في القُرْبِ والبُعْدِ فيه غَيْرُ مُنْفَحِمِ

أعجَزَ الخَلاَئقَ الفَهْمُ "وهو تصوُّر الشيء من لفظ المُخاطب، وقيل: "الوصول إلى المعنى" وقيل: "المعرفة العقلية، أي أعجزهم فهم تفصيل معناه: من أحواله السنيَّة وصفاته البهية، فلا يرى الورى أوْ راءٍ، أحدٌ غير منفحم، أي لا يرى من الخلق المفكرينَ في إدراكِ تلك الأحوال، القاصدين الإحاطة بها عند القُرب منْهُ والبعد عنه، منقطع عن إدراك ذلك.

(٤٩) كالشَمْسِ تَظْهر للعيْنين مِنْ بُعُـدٍ   صغيرةً وتُكِلُّ الطَّـرْفَ مِـنْ أَمَـمِ

هو كالشمس في بُعدها وسُرعتها، فإن جرمها كقدر مائة وستين مرَّة أو يزيد، لشبه الشمس حال كونها غير مُدْركةٍ، قريبةٍ أو بعيدةٍ، وهي تعجز العينَ من قُرْبٍ، ووجْهُ الشبه أن البعيد منه ﷺ إنما يتحصل من أحوالِهِ على النزر اليسير بالوَصفِ، والقريبُ المشاهد لأنواره وآياته التي تُبهرُ عينَ الباصرة البصيرة عن الإحاطة بجملة معناه لعظم قدره، يزيد بصيرة البصير عَليلاً ويرجع طرفه الناظر كليلاً.

(٥٠) وكَيْفَ يـدرك في الـدُّنْيا حقيقتَـه   قَـوْمٌ نِيَـامٌ تَسَـلَّوْا عَنْـهُ بِـالحُلُمِ

وفي تعبير عدم الإدراك في الدنيا إيماءٌ إلى إدراكِ ذلك في الآخرة، بالمقامِ المحمود، والوسيلة العظمى، والدرجة العليا، وفي الحديث: "الناسُ نيامٌ إذا ماتُوا انتبهوا".

فَمَن في الدنيا لا يدركَ الحقائق المتمحضة للآخرة؟! لأن نفسَ الدنيا حجاب منها، كما يحجب النائم النوم عن إدراك أحوال اليقظة، وهؤلاءِ القوم النيامُ، اكتفُوا

بذلك، ولما أثبت للقوم النوم، لزم كونُ إدراكهم إيَّاه مثل رؤية النائم في النومِ.

(٥١) فمبلَـغُ العلـمِ فيـه أنَّـهُ بَشَـرٌ وأنَّـهُ خـيرُ خَلْـقِ الله كُلِّهـم

إنّ مُنتهى علم الورى بصفاته وكمالاته فيه ﷺ صفة أو حالٌ للعلم، بأن الله سبحانه قد خصَّه بالرسالة إلى جميع خلقه، وأنّه خير مخلوقات الله أجمعين، والمراد منهم هُنا العقلاء، فدخل فيهم الأنبياءُ والرُّسُلُ والملائكة والجن، كما هو مذهب أكثر أهل السُّنة، وفي هذا البيت إيماءٌ إلى تساوي النّاس في البشرية، والتمايز بالمعارف والخصائص الجميلة، فقد أومأ البوصيري إلى الأولِ بأنه بشر، ليُشاركَ أبناءَ هذا النوع في البشرية، وإلى الثاني إجمالاً بأنه خيرُ خلق الله كُلهم.

(٥٢) وَكُلُّ آيٍ أتىَ الرُّسُلَ الكـرامُ بِهَـا فـإنما اتصـلَتْ مِـنْ نُـورِه بِهِـمِ

إن كلَّ معجزة أتى بها رسلُ الله الكرام - والكرامة هي الدلالةُ على صحة الرسالة بالمعجزة، ووصفُهم بالكرامة لكرامتهم عندهُ تعالى - فإنما اتصلتْ بِنُوره ﷺ، والنُّور ضد الظلمة، واختاره على الضوءِ، لأن الضوء لما بالذات، والنورُ لِمَا بالعَرض ففيه إيماءٌ إلى أن اتصال نور نبوةِ الرُّسل بهم، آياته العارضة لهُ، لأن ما عَبّرَ بِهِ يُعطي أن نوره لم يزلْ قائمًا به، لم ينقص شيء منهُ، بخلاف فإنما هي منْهُ.

(٥٣) فإنه شَمْسُ فَضْـلٍ هُـمْ كواكبهـا يُظهِرْنَ أنوارَهَا للنَّاسِ في الظُّلَـمِ

فإن رسول الله ﷺ، فضلُهُ عظيم، فقد شبه البوصيري الفضلَ بالسماء، بجامع عُلُوِ القدرِ، وإن رُسل الله الكرام عليهم السلام كواكبها الظاهرة، والضميرُ للشمسِ، وهي تُبدي الكواكب، التي تظهر أنوار تلك الشمس المكنى بها عنه ﷺ، ولما كانَ حكمةُ إرسال الرسل، هداية الناسِ لطريق الحق، فأشار البوصيري إلى أنَّ الرسُلَ مبعوثونَ إلى

الناسِ فقط، بخلاف نبينا ﷺ فمرسل إليهم وإلى الجن، بلْ وإلى الملائكة، وهناك إيماءٌ إلى أن الرسل والأنبياء، لَمَا لم تكن إلى جميع الناس، بل كل واحدٍ إلى جماعة خاصة، شبهوا بالكواكب المظهرة أنوارها، على قدر وكيفية مخصوصين، وقيد الظهور بكونِهِ في الظلم، ليفيد بقاءَ الظلم التي هي شرطُ ظهور نورِ الكواكبِ، على ما يُشاهَدُ في الواقع، بخلافِ نبينا ﷺ، فإنَّهُ لما كان مبعوثًا إلى جميع الأمم، من الإنْسِ والجن، لم يحتج ظُهُورَ أنواره، ولم يفتقر إشراقها إلى قيْد وشرطٍ، ولذا شبهها بالشمسِ الظاهِرِ نُورُها ظهورًا تامًّا مُزيلاً لجميع الظُّلمِ بالكلية، ولما لم يبْقَ مع الشمس عند ظهورها أثرُ لشيء من الكواكب، كذلك آياته ﷺ. وشريعته التي لما بدَتْ نسخَتْ سائر الشرائع، لا يُقالُ: هو متأخر الوُجُودِ عنهم، وأَنْوارُ كُل منهم متقدمة عليه، فكيف تُستمد أنوارَهم من نُورِهِ؟.. لأنا نقولُ: نورُهُ متقدمٌ، وإنْ تأخرَ وجودُ ذاته.

(٥٤) أكـرمْ بخَلْـقِ نبـيٍّ زَانـه خُلُـقٌ ... بِالحُسْنِ مُشْتَمِلٍ بالبِشرِ مُتَّسِمِ

أكرِمْ وأنعم بصورة نبي موصوف بأنَهُ شمسُ فضل، زان ذلك النبي ﷺ خُلُق "وهو أوصاف روحانية" ومعانٍ مستحسنة، المُسمَّى بِمكارِمِ الأخلاقِ، وفي الحديث قوله ﷺ: "إنَّما بُعثتُ لأُتمِّم مكارِمَ الأخلاق".

والفائدةُ هنا القصد إلى كمال حُسْنِ الصورة، بانضمام حُسْنِ السيرة، وهو ﷺ متميز بطلاقة الوجه، وخلقه ﷺ هو ذاتُهُ.

(٥٥) كَالزَّهْرِ في تَرَفٍ والبـدْرِ في شرفٍ ... والبَحْرِ في كَـرَمٍ والـدَّهرِ في هِمَـمِ

إنَّهُ ﷺ كالزهرِ في تنعمهِ ونَضَارَتِهِ، في جسمه وطيبِ عرقه، ويزيدُ نُورُ النارنج ببياضِ اللَّونِ الذي ليس بالأمهقِ، وهذا كانَ لونُهُ ﷺ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ حُسْنَ الصورةِ إنَّما يُمتدحُ بها إذا عززتْ بحسن الخلق وإلاّ فلا نظر إليها .. قال ﷺ:

"إن الله لا ينظرُ إلى صُوركم وَلاَ إلى أجسامكم وإنما ينظرُ إلى قلُوبِكم وأعمالكم". وهو ﷺ كالبَدرِ في الشرف وعلُو القدْرِ وحُسْنِ البهجة، والبدر هو القمر عند تمامه وهو يدور البروجَ الاثنى عشر، ويقطع الفلكَ في مدة ثمانية وعشرينَ يوْمًا وبعضَ يومٍ، ويُقيمُ في كل بُرْجٍ يومين وثلثًا تقريبًا، وكُلَّ منزلةٍ من منازلِ القمر الثمانية والعشرين يومًا وليلة، ويظهر عند إهلاله من ناحية الغربِ.

(٥٦) كأنَّـهُ وهـو فَـرْدٌ مـن جلالتِـهِ   في عَسْكَرٍ حينَ تلْقَاهُ وفي حَشَـمِ

كأنهُ ﷺ وهو فردٌ وحْدَهُ، ليس معه أحد غيره، من أجل جلالته القائمة به، ومن عِظَم قدْرهِ في جيشٍ عظيم وعسكر، وهم القوم على الخيل والإبل، عندما تقابله... وذلك طبقًا لقولِ على كرم الله وجهه: "مَنْ رآه بديهةً هابه، ومَنْ خالطَهُ معرفةً أحبهُ، وهو في وسط خُدَّامه الخاصين".

(٥٧) كأنما اللُّؤلُـؤُ المكنُـونُ في صَـدَفٍ   مِن معْـدِنَيْ مَنْطِـقٍ مِنْـهُ ومُبتَسَـمِ

كأنَّما اللؤلؤ المصون في صدفٍ، وهو الغشاءَ، وشبه كلامه بالدر في استمالة القلوبِ والخواطر، وجَذْبِ الظواهر والبواطن، مع حُسْنِ الابتسام وطلاقةِ الوجْهِ عند الكمالِ، فكأنّ اللؤلؤ المصُون في صدفِهِ يخرُجَ من معدنين من معادنه ﷺ:

أحدُهُما معدن كلماتِهِ، والآخر معدن ابتسامه ..

أما الأول، فلكمال فصاحته، وحسبُكَ قولُ بعض الصحابة:

ما رأينا الذي هو أفصحُ مِنك فقال: "وما يمنعني وإنما أنزل القرآنُ بلساني؟!"

وفي حديثِ أُم معبدٍ:

"كأنَ منطقه خرزات نُظمت". وأما الثاني، فمنْهُ قولُ بعضِ ناعتيه:

"إذَا ضحكَ افترَّ على مثل سنى البرْقِ"، وقوْلِ آخر: "عن مثل حب الغمام"، وقول آخر: "إذا تكلم رُؤي كالنُّورِ يخْرُجُ بين ثناياهُ".

(٥٨) لاَ طيبَ يعدِلُ تُرْبًا ضَمَّ أعظُمَهُ   طُـوبى لمنتَشِـقٍ منْـهُ ومُلتـثِمِ

إنَّ التراب الذي جمع أعظمه، أفضل وأسمى تراب في الدنيا، لاشتمالهِ على جسده الشريف ﷺ، فطوبى "نهر في الجنة" لمنْ عفر وجْهَهُ بتُربِهِ، فصار مثل اللثامِ، وهذا أولى كراماتِ تقبيل القبر، وهُنا المقصودُ الدُّعاءُ لمن استنشق من تلك التربة العظيمة، ولذلك لم يبْقَ عند العاقِلِ المُصدّقِ بالشريعة امتراء، في أنّهُ لا طيب من الدنيا يعدلُهُ.

(٥٩) أَبَانَ مَوْلِدُهُ عـن طيـبِ عُنصـره   يـا طيـبَ مُبتَـدَأ مِنْـهُ ومُختَـتَمِ

أظهر مولدُهُ ﷺ آياتُ ولادته بزمانها ومكانها، عن أصله وآبائه الذينَ تناسَلَ منهم، فأبان أحوالهم، وما شوهد منهم من أنواره المنتقلة من واحد إلى آخر، إلى أبيه وغيره، ذلك مما ظهر عليهم من آياته من دلائل طيب أصلهِ وحسبِهِ، فكشف عن جلالة أصله وعُلو شأنه ورفعة منزلته وسمو مرتبته، فقد قال ﷺ: "ليسَ فينا سِفاح، " كُلنا نكاح". وآياتُ مولده ﷺ كثيرةٌ جدًا، مذكورة في كُتب السِّير والمواليد، وما حَصَل لَهُ من الترقيات وعُلو المراتب في مختتم أمرهِ من ترقي دينه وتزايدُ ملته، إلى أن بلغت مرتبة الكمالِ، وتحقق فيها التكميل والإكمال، ومحلهُ كُتُب دلائل النبوة والمعجزات.

وفي ذلك إشارة أن إلى السعيد من سَعِدَ في بطنِ أمّه، وكذلك الشقي.

(٦٠) يـومٌ تفَـرّسَ فيـه الفُـرْسُ أنهُـمُ   قَدْ أُنذِروا بِحُلُولِ البُؤسِ والـنِّقَمِ

اليومُ المقصود به ما بين طُلوعِ الفجر الصادق وغروب الشمس. أما النهار فيما بين طلوع الشمس وغروبها.

ويُستعملُ كلٌّ في كلٍّ، وقد يُستعملُ في مطلق الوقت، حيثُ تثبت ونظر أهلُ بلادِ فارس، وهُم عَبَدَةُ النار، فقد أُعلموا إنذارًا بنزول العذاب الشديد، فقد ظهر لهم ذلك اليوم من الأمارات التي أخبرهم بها علماؤهم وكهانُهُم في ظهور أمر رسول الله ﷺ أنه كائن، وما أنذرهم به كاهنهم من خرابِ ملكهم وتشتت أمرهم وتفريق قبائلهم على يده ﷺ ويد أصحابه القائمين بشريعته وإن ذلك حالٌّ بهم.

(٦١) وَبَاتَ إيوانُ كِسرى وهو مُنصدِعٌ   كَشَملِ أَصْحاب كِسرى غيرَ مُلتئِمِ

وصارت الصُّفة العظيمة التي يجلس فيها ملك الفرس، والمُراد به هُنا أنوشروان ابن قباء، منشقة بحيث لا تقبل الالتئام، وقد خَصَّ شملَ الأصحابِ، دون الحشم والخدم بالذكر، إشارة إلى أن جماعته الملازمين له، مع قوة قدرتهم، وكثرة أشياعهم، وغاية توجههم لنظم أحوالهم، شملهم الشتاتُ، فكيف بمن دُونَهم؟!

وفي انشقاق الإيوان، الذي هو محل ظهور عظمة المُلك إيذان - في أوّلِ الأمر - بتبديل العزةِ بالذلة، والعظمة بالمهانة وزوال تلك المملكة بالكلية.

(٦٢) والنّارُ خامدةُ الأنفاسِ من أَسَفٍ   عليه والنهرُ سَاهي العين مِنْ سَدَمِ

وصارتْ النَّارُ التي يُعبدُونَها في ذلك اليوم لا لهب لها، والجمرُ باقٍ، إنهُ في ليلة مولده ﷺ ، ارتعد إيوانُ كسرى وسقط منه ١٤ شُرَّافة، وخمدتْ بُيُوتُ النيران تلك الليلة، ولم تكُن خمدت قبل ذلك بألفِ سنة، وسكنت جرية عين النهر، التي هي مادته من الندم والحُزن. ويحتمل كوْنُ سُكُونِهِ مجازًا عن عدم جرية الماءِ، لأن الماءَ الجاريِ لا يسكُنُ، بل يخلُفُ بعضُهُ بعضًا، كالعينِ اليقظى، فإنها تطرف المرة بعد الأخرى.

(٦٣) وَسَاءَ سَاوَةَ أَنْ غَاضَتْ بُحيرتُها ... وَرُدَّ واردُهَا بالغيظِ حينَ ظَمي

ومن آياتِ ولادته يوم حزن أهل مدينة ساوة، وهي بين الري وهمذان، وبِقُرْبها مدينةٌ يقالُ لها "آوةُ"؛ فقد نقصت مياهُ تلك البحيرة وغاضت، وقيل إن طولها وعرضها كانَ لكل منهما ستة أميالٍ بِقُرب ساوة، وأحزنها أيضًا أنْ صُرِفَ واردُها للاستقاءِ من مائها حين ظمئ فلم يجد فيها ماءً فنالَهُ من ذلك الغيظ الشديد.

(٦٤) كأن بالنارِ ما بالماءِ مِنْ بللٍ ... حُزْنًا وبِالماءِ ما بالنارِ من ضَرَمِ

وصارتْ نار فارسَ التي خمدتْ، كأن بها من الأوصاف التي من جُملتها البلَلُ، مثل أوصاف ماءٍ بحيرة ساوة قبل غيضه، أي صارتْ مبتلة باردة، كبلل ماء هذه البحيرة وبرودته، من الحزن، وصارَ ماؤها الذي غَاضَ يلتهبُ، كأنَ بِهِ من الأوصاف التي منها الضرمُ مثل أوصافِ نارِ فارس قبل خمودها من حزنه أيضًا. بمعنى أنْ كُلا من ماءِ بحيرة آوة ونارِ فارس انتقل إلى كل منهما أوصاف الآخر، من الحُزنِ على تغير أحوالِ الكفر، وخصّ من أوصافِ الماءِ البلل دون البرودة، ومن أوصافِ النار الاضطرام دونَ الحرارة، لأن النار لا تبقى حقيقتها مع الاتصافِ بالبلل، فإنها في غاية اليبوسة، ولذا تفرق الأجزاءُ، والبَلَلُ يصلُ الأجزاء المتَفرقة، كما يفعل الماء بالتراب، ووصفها بالبردِ لا يُخرجَها عن حقيقتها، وفي حُسْنِ التعليل دعوى ثُبوتِ البَلَلِ للنارِ، والالتهاب للماءِ، بسببِ الحُزنِ.

(٦٥) والجِنُ تهتفُ والأنوارُ ساطعةٌ ... والحَقُّ يظهرُ مِنْ معنى ومِنْ كَلِمَ

والجنُ، وهم جسم "ناري" لَهُ قدرةٌ على التشكل، تُصوت تلك الليلة على الجبال وبُطونِ الأودية بالإعلام، بما أظل الناس من نبوته ﷺ، لأنها كانت قبل ولادته ﷺ غير ممنوعةٍ من استراق السَّمع، لذلك كثرت إصابةُ الكُهَّانِ في ذلك الوقت لأنهم يسمعُونَ

من الجن ما يكُونُ من الحوادثِ في الأرْضِ على التحقيق، فلما مُنعوا بعدَهَا من الاستراقِ بالشُّهب، إلاّ من خطفَ الخطفة، جعلوا يتكلمونَ من غير تحقيق، ولذا فهم يكذبون ويهتفون بالأقوال على غير تحقيق.

ثم لا إشكالَ في حُزْنِ الجِن، لأن أكثرهم عُصاةٌ، ولا في انصداعِ إيوانِ كسرى، لما فيه من ذُلهِ وصغارِهِ. وكذا خمدُ النارِ، واضطرامُ مكان الماء لذلك، والجمادُ لا يوصَف بالكُفرِ ومشاقة الله تعالى، بل كُلّها منقادة خاضعة لأمره، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٤٩].

والأنوار المحسُوسة الظاهرةُ لأمه عندَ ولادته، ارتفعت فأضاءت بها قُصور بصرى بالشام، أو النورِ الذي علا وَجهُ كُل من آبائه.

(٦٦) عَمُوا وصَمُّوا فَإِعْلَانُ البشائِرِ لَمْ تُسمَعْ وبارقةُ الإنْذارِ لَمْ تُشَمِ

لقد أصبحُوا كالعُمي والصم، في عدم انتفاعهم بالمشاهد من معجزاته ﷺ، لأن ثمرة الأبصارِ الجري على شاكلة البصر، وكالصُّم في كونهم لم ينتفعوا بما تواتر عندهُم من آياته.

والتواترُ يقومُ مقامَ المُعاينة، في إفادَةِ العلم، لأنّ الحاصِلَ بِهِ منَ الضروريات، وكأنّهُ قَسمهم إلى من حضر وشاهد، لأنه لم يُقر بمقتضى ما رأى، وهؤلاء هُمُ الذين أُخبر عنهم أنهُم صَمُّوا.

وإن إظهار البشائر بصحة رسالته ﷺ وإشاعتها، كسطوع الأنوارِ وإبصار الكُهّان لم يُسمع، وما لاَحَ لهم بما أنذرهم من انقضاءِ دولة الكُفار، وإذلال أهلها بما هو شبيهٌ بإشهارِ السُّيُوفِ، بِضَربِ مَنْ لم يدخل بالطاعة بها، أو كالبرقِ المُنذِرِ بنُزُولِ الصواعق، وكانقضاض الشهب المؤذِنِ بأمْرٍ عظيم بِخَرابِ الدنيا أو غيره، وذلك كصدْعِ الإيوان

وخُمُودِ النيران، كأنّ حاضرَ ذلك لم يَرهُ، وهو معنى "لم تُشم" أي لم يُنظر إليهما.

(٦٧) مِنْ بعدِ ما أخبرَ الأقوامَ كاهِنُهُم بأنّ دينَهُمُ المعوجَّ لَمْ يقُمِ

من بعد ما أخبر الكاهنُ الصم العُمي، والكاهن الذي يدَّعي معرفةَ الأسرار ومغيبات الأحوال، ويُخبرُ عن الأمورِ الماضية وعن الاستقبال بأخذ العلم من الشياطين المسترقين للسمع، وقد وصفَ دينهم بالمعوّجِ للتأكيدِ على عدم الاستقامة.

(٦٨) وبَعْدَ ما عاينُوا في الأفْقِ منْ شُهُبٍ مُنقضَّةٍ وَفْقَ ما في الأرضِ من صَنَمِ

وكانَ هذا العمى والصمم بعد ما رأوا بأبصارهم، والشهابُ هو الشُعلة الساطعة، ويقال: "شهاب ثاقب" أي مَضيء، وتلك الشهب ساقطة على الشياطين المسترقين للسمع من الملائكة في السَّماء ليلةَ ولادته، فقد انقضت نحو كل صنم وهُو ما كان مصوَّرًا، ولم تزل الشهب تنقض إلى جهة الأصنام.

(٦٩) حَتَّى غَدَا عَنْ طريقِ الوحي منهزِمٌ مِنَ الشياطين يقفو إثْرَ مُنهَزِمِ

حتى أصبح عن طريق الوحي الذي يجئ به إلى النبي ﷺ، منهزم من الشياطين، يتبع أثر مُنهزمٍ آخر، فلم يقعد بعد مبعثه ﷺ أحدٌ منهم على طريق الوحي، يسمعُ منْهُ ما تتكلمُ بِهِ الملائكةُ، عندما يقضي الله الأمر، كأنه سلسلة على صفوان، ثُمّ رجم الشياطين بالكواكب، كان قبل مولدِه ﷺ، ثم يؤذِنُ به قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾ [الملك : ٥].

إلاّ أنه كانَ قليلاً، بحيث لم يتنبه له أكثرُ الناسِ، وقد كانوا منعوا لولادةِ عيسى من ثلاث سماواتٍ، فلما وُلِد ﷺ حُجِبُوا عن جميعها، وكانَ الاستراقُ في بعضِ الأحوالِ

واقعًا. فلما وُلِدَ النبي ﷺ كثُر الرجمُ لَهُم، حتى تنبه لَهُ الناسُ، وصُدوا عن ذلك رأسًا، وقيل: إن منعهم إنما حدث عند البعث، لاَ عند المَوْلِدِ.

(٧٠) كَـأنّهُم هَرَبًـا أبطـالُ أبرهَـةٍ … أوْ عَسْكَرٍ بالحصى مِنْ راحتيه رُمي

كأنهم أبطال أبرهة، في فرارهم وهروبهم من الشُّهُبِ، ووصفُهم بالبُطولة، استهزاءً وتَهكمًا، وأبرهة هو صاحبُ الفيل، الذي جاءَ يهدمُ الكعبة، معناه بالحبشية "أبيضَ الوجه" فأرسَلَ الله عليه وعلى عسكره: ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ ﴾ [الفيل: ٣، ٤].

فهرب أبطالهم يطلبون النجاة سائر الجهات، ولاتَ حين مهرب لهم، بل تفرقت عليهم الحجارة وترادفتْ، فلا يُخطى أحدًا منهُم، وكان الحجَر لا يُصيبُ أحدا إلا هشمه، وما وقع على رجل إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دُبُرِه. وقيل: إذا غاصَ في دِماغِ الرجُلِ ذهب منه السمعُ والبصرُ، أو في جوفِهِ قطع أمعاءَه .. نعوذ بالله من عذابه ومقته... وأرسلَ الله على أبرهة داءً في جسده، فتساقطت أنامله، وما مات حتى انشق صدره عن قلبه، وشبههم في هربهم ثانية بقوله: "أو عسكر بالحصى" وهي صغار من الحصى، وهم الذين جاهدهم ﷺ في حنين، وقد حشدوا له، فأخذ ﷺ كفًّا من تراب أو حصى فرمى به في وجه ذلك الجمْع، فلم يبْقَ أحد منهم إلا أصابهُ منْهُ في عينيه وولوا هاربين، وتبعهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرُونهم.

(٧١) نَبـذًا بِـهِ بعـد تسـبيحٍ ببطـنهما … نبذَ المسبِّحِ مـن أحشـاءِ ملتقِمِ

لقد شبه الجن بالعسكرين، واستتبع ذكر معجزة حُنين بمعجزة أخرى هي تسبيح الحصى بكفه ﷺ.

ومن هنا كان في قوله نبذا أستباع، وهو المدحُ بشيء على وجهٍ يستتبعُ المدح بآخر، وأشارَ إلى ما جاءَ عن أنسٍ قالَ:

"أخذ رسول الله ﷺ كفا من حصى فسبْحن في يده، ثم صبهن في يد أبي بكر فسبحن، ثم في أيدينا فما سبحن". وهي التي رمى بها القوم.

والتسبيح: هو التنزيه.

والمُسبِّحُ: يونس عليه السلام.

والملتقم: هو الحُوت، لأن يونس نبذ من أحشاء الحوت، من مقر البحر سالمًا، لم تطبخُه حرارة معدة الحوت - بعد إقامته في أحشائه - التي تطبخ فيها ما يحصلُ فيها مما هو أعظمُ وأكثف منه.

(٧٢) جَاءَتْ لدعوتِه الأشجارُ ساجدةً تمشي إليه على ساقٍ بلا قَدَمِ

جاءتْ إليه ﷺ الأشجار خاضعة حين دعاها لحاجة بها، ولدُعائه إياها إلى الإيمان بِهِ.

(٧٣) كأنما سَطَرَتْ سَطْرًا لِمَا كتبتْ فُرُوعُها من بديع الخَطِ باللَّقَمِ

إن الأشجار بمشيها إليه ﷺ، أو بسجُودِهَا في الأرضِ، سطرت سطرا من بديع الخطِ، أي من الخط المبدع، وأشير بهِ إلى حديث ابن عُمَرَ رضى الله عنهما، وفيه قوله ﷺ للأعرابي الذي دعاه للإيمان، لما قال: مَنْ يشهد لك على ما تقول؟

قال ﷺ: "هذه الشجرة السُّمرة وهي بشاطيء الوادي، فادْعُها فإنها تجيبك".

فدعاها، فأقبلتْ تخد الأرض حتى قامت، فاستشهدها، فشهدتْ أنه كما قال، ثُم رجعت إلى مكانها. وعند ابن مسعود مثله، لكن مع الجن.

إن السجود مكانه من الدين عظيم، ولذا قال ﷺ لمن سأله مرافقته في الجنةِ: "أعنى على نفسك بكثرة السجود". أخرجه أحمد في مسنده : "٤ - ٥٩".

فينبغي للخائف من ربه تعالى أن يبادر لامتثال ما دعا إليه رسول الله ﷺ ، فيلازم السجود، ويقوم على ساق العبودية، وإن لم يكن له قدم كما قامت الشجرة.

(٧٤) مثلَ الغمامةِ أنّي سَارَ سائرةً تقيه حَرَّ وَطيسٍ للهجير حمي

وهذه الآية مثل آية الغمامة، وقرنها لأن الأشجار من الأرض، والغمام من السماء، أي إطاعتها وما فيها . وفي حديث وفد عبد القيس: "مرحبًا بالوفدِ غير خزايا".

وكما سُخرت له ﷺ الجمادات الأرضية، من الأشجار وما فوق ذلك، من السحاب، سخر له الجمادات السماوية العلوية، فانشق له القمر.

(٧٥) أقسمتُ بالقمرِ المُنشقِّ إن لهُ منْ قلبه نسبةً مبرورةَ القَسَمِ

حلفت بالقمر المنشق آية له ﷺ، وأشار به إلى ما جاء عن أنس وابن عباس رضى الله عنهما : "أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ آية، فأراهم انشقاق القمر".

وجاءَ ذلك في حديث ابن مسعودٍ ﷺ أيضًا.

وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ ﴾ [القمر: ١].

وسمي القمر قمرًا لبياضه، أو لاستنارته، أو لقمرة الأعين، أي غلبته عليها بنوره، ويسمى بذلك بعد ثلاث ليالٍ من أول الشهر.

وفي لبابِ التفاسير: "إنّ سعة القمر ألف فرسخ في مثلها. وزعم أهل الهيئة أنه ليس في سماء الدنيا من الكواكب السيارة سوى القمر".

ثم يحتمل أن يكون القسم بالقمر نفسه على عادة الأدباء، أو باعتبار أنه من معجزاته ﷺ، ونسبة القمر من قلبه ﷺ أن قلبه الشريف إنما شق، لتتمكن فيه معارف النبوة وصفاتها، ثم يظهر للناس بعدُ .. وكذا القمرُ شق ليظهر النبوة ويتقرر للمكلفين، وأيضًا فالقمر نوره يتلألأ، وقلبه ﷺ أنور منه، وقد شق القمر مرتين، وقلبه شق كذلك مرة في صباه لاستخراج حظ الشيطان منه العلقة السوداء، ومرة عند الإسراء به للوحى.

(٧٦) وما حَوى الغارُ مِنْ خيْرٍ ومِنْ كَرَمِ وكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكُفَارِ عنْهُ عَمِي

أقسمتُ بما حاز وجمع الغار الذي هو كالكهف ببطن ثور، أسفل مكة، وما حواه هو النبي ﷺ والصديق ﷺ من خير.

لقد آثر أبو بكر الرسول ﷺ على نفسه وماله، ومنه أنهما لما أتيا الغار، تقدم أبو بكر في الدخول، مخافة أن يكون فيه ما يؤذي النبي ﷺ فيتلقاه بنفسه، فلم ير شيئا، ودخل النبي ﷺ بعده، وكان في الغار خرق فيه حيات وأفاع، فخشى أبو بكر أن يخرج منه شيء يؤذي رسول الله ﷺ فلقمه، فجعلت الحيات والأفاعي يضربنه ويلسعنه، فجعلت دموعه تنحدر ورسول الله ﷺ يقول: "يا أبا بكر، لا تحزن إن الله معنا".

(٧٧) فالصِّدقُ في الغَارِ والصدِّيقُ لَمْ يرِمَا وَهُمْ يقُولُونَ مـا بالغـارِ مِـنْ أَرِمِ

فالصدق، وهو النبي ﷺ وأبو بكر الصديق معه فيه. والصديقُ صفة مبالغة من الصدق، فهما لم يبرحا من الغار ليلاً، ولم يغضبا مما أصابهما لأنه يقينهما الله وقدره، ذلك من تمكنهما وصدق بيقنهما. ومن ستر الله عليهما فقد عُمي على الكفار وجودهما.

(٧٨) ظَنُّوا الحمامَ وظنُّوا العنكبوتَ عـلى خـيْرِ البريـةِ لَمْ تنسـجْ وَلَمْ تَحُـمِ

ظَنَّ الكفار لإعماء الله بصائرهم وأبصارهم، مع صحة أبصارهم، أنه لا أثر لحوم

الحمام، ولا لنسيج العنكبوت.

وقد أنبت الله في وجه الغار شجرة، وأمر حمامتين وحشيتين، فوقفتا على فم الغار، كما أمر العنكبوت فنسج على الشجرة، فأتى المشركون ودنوا حتى كانوا على قدر أربعين ذراعًا، فقال أحدهم: ليسَ في الغار شيء، فقال أمية بن خلف: وما أراكم إليه، إن فيه لعنكبوتا أقدم من ميلاد محمد ﷺ.

(٧٩) وِقايَـةُ الله أغنـتْ عـن مُضـاعفَةٍ مِنَ الدُّرُوعِ وعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُـمِ

كانَ حفظ الله وصيانته له ﷺ عما يؤذيه ويضره، يتمثل أيضًا في ظنهم مما أغناه وصاحبه في التحصُّن، دون حاجة لمضاعفة الدروع من الحديد، والمضاعفة هي الزيادة على أصل الشيء، فيجعل مثلين وأكثر.

(٨٠) مَا سامني الدَّهْرُ ضَيمًا واستجرتُ بـه إلاَّ ونلتُ جِـوارًا منـه لَمْ يُضَـمِ

ما ضامني وما أرادني الدهر بظلم أو قهر، والمقصود هنا ليس الدهر وإنما هم أهل الدهر، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

واستجرت بالله منه، فإن إجارة الله مغيبة عن الأغيار، فمن شملته هذه العناية والإجارة، كُفي كيد الأعداء، وفاز بمآرب الدارين، ووقايته تعالى مغنية غاية الغناء، ورافعة لكل قولٍ وبلاءٍ.

(٨١) وَلاَ التَمسْتَ غنى الدارين مِنْ يـده إلاَّ استلمْتُ النّدى من خير مُستَلِمِ

ولا التمست غنى الدنيا والآخرة، وهو كثرة المال واليسار من جوده ﷺ، إلا تناولته باليد، وهو الجود والكرم، وكأنه أشار إلى ما قصده من التوسل بهذه القصيدة إلى النبي ﷺ في أن يشفع فيه لربِّه كي يشفيه من مرضه العُضال الذي ألمَّ به.

(٨٢) لاَ تنكر الوحيَ مِنْ رؤياهُ إن لـه   قلبـا إذا نامـت العينـانِ لَمْ ينَمِ

خلق الله تعالى في قلب النائم اعتقادات، كخلقها في قلب اليقظان كالغيم علمًا على المطر، وهو تعالى يفعل ما يشاء، لا يمنعه نوم ولا يقظة.

والرُّؤية والرؤيا خُصتا بما كان مناما، فإذا نامت العينان بسبب تصاعد رطوبات الأبخرة إلى أعصاب الدماغ تحيلهما نيامًا، وعدم نومه ﷺ، لأنه قد شق وطهر من التعلق بغير الله، وملئ حكمةً وإيمانًا، فاليقظة الدائمة صفة له، فيحسن منه أن يُخاطب ويتلقى الوحي، لا كالقلوب التي تنام حين تنام أعينها، وأما نومه ﷺ عن الصلاة في سفره، حتى طلعت الشمس، فلأن مشاهدة طلوعها وظيفة العين وهي نائمة.

(٨٣) وذَاكَ حـينَ بُلُـوغٍ مِـنْ نبوتـه   فلـيسَ يُنكَـرُ فيـه حَـالُ مُحتَلِمِ

لقد كان الوحي عند النوم، ثبت عند بلوغه النبوَّة، وكانَ ذلك في ابتداءِ النبوة، ليأنس بها، وبملاقاة الملك، إذْ لو فاجأه ابتداء، لأمكن أن لا يُطيق ملاقاته، فلما أنس وقوي حاله أتاه في اليقظة.

(٨٤) تبـاركَ اللهُ مـا وحـي بمكتَسَـبٍ   ولاَ نبـيٌّ عـلى غيـبٍ بِمُـتَّهَمِ

تكاثر خير الله وتزايد ودام، وإن الوحي اختصاص إلهي، فَلاَ يُنكرُ كونهُ في نوم، كما لا ينكرُ كونُهُ في يقظةٍ. وزعْم البعضِ أنّه مكتسب كُفرٌ صراحٌ مبني على أصل الفلاسفة من أن العلة توجب معلولها، إنْ وجد الشرطُ وزَالَ المانع، وفيه إبطال قاعدة الفاعل المُختار، وتباركَ الله عن اتهامِ أنبيائه بالكذب فيما أخبروا به عن الغيب، لتصديقه لهم بالمعجزات، والحق اليقين أنه ﷺ ولا نبي من الأنبياء عليهم السلام على إخبار غيب بمتهم: بكذبٍ فيه لعصمته. قال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٤]، والحق أن الوحي والنبوة محضُ عناية ومجرد لطف يخص الله بهما من يشاء، وتعميم نبيٌّ مع أن سوق الكلام في مدح نبينا ﷺ، لأنه يلزمُ من نفي الاتهام عن كل منهم نفيه عنه بأبلغ

وجه، أو أنه من العام الخاص كأنه العلم في ذلك. والأنبياء معصومون من تعمد الكذب في الأحكام، والتبليغ عن الله تعالى إجماعًا، ومن جميع الكبائر والصغائر الخسيسة، وفي عصمتهم من غير الخسيسة خلاف، ويرى المحققون على عصمتهم من الجميع، وما جاء من موهم صدور ذنب منهم نحو: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ ﴾ [الفتح: ٢]، إنما هو كناية عن تعظيمهم وإعلاء درجاتهم، أو الذنب فيه محمول على ترك الأولى، كما قيل: **"حسنات الأبرار سيئات المقربين"**.

وترك الأولى ليس بذنب، لأنه وما يقابله مشتركان في إباحة الفعل، وعتابه تعالى للحث والحض على فعل الأولى.

(٨٥) كُمْ أبرأتْ وَصِبا باللَّمس راحتُه وأطلقتْ أرِبًا من ربقة اللَّمَمِ

كم شفي مريض بلمس راحته ﷺ، فقد روى أن شرحبيل الجعفي، كان بكفه سلعة تمنعه القبض على السيف وعنان الدابة، فشكاها للنبي ﷺ، فما زال يطحنها بكفه، حتى لم يبق لها أثر" فكثيرًا ما أطلقت راحته عقدًا كائنة من حبل فيه عدة عُرى، تُشد به البُهُمُ.

وقد روى أن امرأة جاءت له ﷺ بابن لها به جنون، فمسح بيده المباركة صدره، فتع تعة، أي قاءَ فخرجَ من جوفه مثل الجرو الأسود. "مسند أحمد ١ : ٢٣٩".

وإن فُسِّرَ اللممُ بالذنوب والمعاصي فالمعنى كثيرًا ما أطلقت راحته عقدًا من ربقة حبل الكفر، ثم أصبح منها محلولاً ببركة منه ﷺ. ويحتمل أن يكون "أرِبًا" أي ذا حاجة، وهي أعمُ منها على إعطاء أو شفاءٍ، أو تخلصٍ من إثم، والمحتاج إلى الشيء قبل نواله، فهو مجنون، فإذا ناله كأنهُ أطلق منهُ.

(٨٦) وأحيتِ السَّنة الشهباءَ دعوتُه حَتى حَكَتْ غُرَّةً في الأعصُرِ الدُّهُمِ

ومن معجزاته ﷺ أنْ أخصب العامُ الذي لا مطر ولاَ نباتَ فيه "سُميت به لغلبة

بياضِ الأرض فيها بعدم النبات، فهي بالنسبة إلى البياض ميتة أحياها دُعاؤه لربه سبحانه أن يُحييها بالمطر، فأجاب دُعاءه، ونزل المطر، وأحييت السَّنة بتبديل الجدْبِ فيها بحالِ الخصب، حتى شابهت غُرَّةً، أي صارتْ نسبة تلك السنة بما اشتملت عليه من الخِصْبِ، إلى سائر العصر الدهم، نسبة الغُرة من كل شيء، وهو الأفضل منْهُ، وإنما كانت أزمة الخصْبِ دُهْما، لشدَّة خضرة النبات فيها.

(٨٧) بِعارِضٍ جَادَ أو خِلتُ البِطاحَ بِهَا　　　سَيْبٌ من اليم أو سَيْلٌ مِنَ العَـرِمِ

وهذا الإحياءُ الحاصلُ بدعوته ﷺ بسبب سحاب معترض في الأفق، كثُرَ مطره إلى أن ظننتُ مسايل المياهِ الواسعةِ بِهِ من كثرةِ ذلك المطر، أنّهُ من البحر أو من سد أهل اليمن الذي بنتهُ بلقيس، على ما ذكره أهل السِّير والتاريخ.

(٨٨) دَعْني ووصفي آياتٍ لـهُ ظهـرتْ　　　ظهورَ نَارِ القِرَى لـيلاً عـلى عَلَـمِ

اتركني ووصفي لعلامات النبوة الظاهرة، مثل ظهور النار التي توقد لدلالة الضيوف على محل الضيافة، وإنَّما أصف من آياته ﷺ ما لا يسعُ إنكارَهُ لظهوره ظهور نارِ الأضيافِ.

(٨٩) فالدُّرُّ يزْدَادُ حُسنًا وهـو منتظِمٌ　　　وليْسَ ينقصُ قَـدْرًا غـيرَ مُنـتظِمِ

واللؤلؤ، وإنْ كانَ حسنًا في نفسه لكنْ حُسْنَهُ يزدادُ في السِّلكِ، لما ثبت لَهُ من الترتيب والتناسُبِ، وكذا ما يحصُلُ من زيادة الالتذاذ بسماعِ الآيات منظومة.

(٩٠) فَـما تَطـاوُلُ آمـالِ المـديحِ إلى　　　ما فيه من كَرَمِ الأَخْلاقِ والشِّـيَمِ

وما امتداد الرّجاء في الممدوح به، وهو الثناء الحسن، فإن المُرادَ بالمديح المادح إلى

ما فيه ﷺ، من السجايا والفضائل الطبيعية، وكرم الطباع المرضية الواصلة ثمرتها للغير، إذ أن كرم أخلاقه من كرم طباعه، لأن الطبائع لا تظهرُ للوجود، وإنما تظهرُ آمالها، فإنّ وصْفَ الآيات بالنظم يجعلها أكثر تأثيرًا على القارئ والسامع.

(٩١) آيــاتُ حَــقٍّ مِــنَ الـرَّحمنِ محدَثَــةٌ　　قديمــةٌ صِــفَةُ الموصــوفِ بالقِــدَمِ

إن نزول الآيات وبعثة الأنبياء، من مظاهر الرحمة. والرحمة صفة رحمانية نفسانية، تستدعي الفضل على المرحوم.

فقد قال العلماء: أسماءُ الله تعالى لا تؤخذ إلا باعتبار الغايات، دونَ المبادئ، والمعجزةُ فِعْلُ الله، ولا شيءَ من الفعل بقديم.

(٩٢) لَمْ تقــترنْ بِزَمــانٍ وهــي تخبِرُنــا　　عن المعادِ وعَــنْ عــادٍ وعَــنْ إِرَمِ

لم تقترن مدلولات الآيات بزمان، لأن القديم لا أوَّلَ لوجودِهِ، وهذه الآيات تُخبرُنا عن الرجوع إلى الله تعالى في الدّارِ الآخرةِ بعد موتنا، كما تُخبرنَا عن قبيلة عادٍ، التي بعث إليها هود عليه السلام، وقد سميت باسم الأب، وهو عاد بن عِوض بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، كانَ عمره ألفًا ومائتي سنة، ورأى من صُلبه أربعة آلاف، وتزوج ألْفَ امرأة، وكان كافرًا يعبدُ القمر. كما تخبرُنا عن مدينة إرم التي بناها شدادُ بنَ عَادٍ، وقد ولي المُلك بعد أبيه لما سمع بذكر الجنة وما فيها، فقال: لأبنين مثلها، فبنى إرمَ في ثلاثمائة عام، وجعل قصورها من الذهبِ والفضة، وأساطينها من الزّبرجد والياقوت، وجعل فيها أنهارًا مُطردةٍ وأصنافًا من الشجر، وعند كمالها رحل إليها بأهل مملكته، فلما كانَ منها على مسيرةِ يومٍ وليلة بعث الله عليه صيحة من السماء.

(٩٣) دَامَتْ لدَيْنَا فَفَاقَتْ كُـلَ معجِـزَةٍ مِـنَ النبيـينَ إذْ جَـاءتْ ولَم تَـدُمِ

استمرت دُونَ انقطاعٍ عندنا، فبسببِ ذلك فاقتْ لدوامها وشرفها كل خارقٍ للعادةِ، مقرُونًا بالتحدي، من النبيين السابقين، الذين انقرضتْ معجزاتُهم بانقراضهم، ولا تظهرُ على أيديهم إلاّ مرةً واحدةً مدّة حياتهم، عند التحدي، ثم لا تظهر بعد.

قال ﷺ: (ما مِنَ الأنبياءِ، إلاّ وقد أوتي ما مثلهُ آمنَ عليه البشَرُ، وإنّما كانَ الذي أوتيتُ وحيًا يُتلى، وهو باقٍ على الدوام). "أخرجه البخاري في صحيحه في الاعتصام، ومسلم في الإيمان ٤٣٩"..

(٩٤) مُحكَـماتٌ فَـما تُبقِـينَ مِـنْ شُـبهٍ لِذِي شِقَاقٍ وما تبغينَ من حَكَـمِ

من حكمته جعلت له الحكم، أي إنها يُستفادُ منها مع إتقانِ نظمها في البلاغة، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]، وقد كانَ العربُ مالكيِ أزمّةَ الفصاحة، وقيادة البلاغة، وقد عجزُوا أجمع عن ذلك، قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولِمَا فيها من الآيات المُزيحة للشكوك، قال البوصيري: "فما يبقينَ من شُبهٍ" فليس في هذه الآياتِ التباسٌ وعدم تميز الشيء من غيره عما كان أو غيره، فكأنهُ يقولُ: آياتُ القرآنِ لا تبقي شيئًا من أنواعِ الشُّبه المتعددة، ويدفعها على اختلافِ أنواعها، وما من أحدٍ يعرضُ لهُ شبهةٌ إلاّ ويجد شفاءها في القرآن، فهو الشِّفاءُ لكل داءٍ، والنجاةُ عند تفرُّقِ الأدواءِ، وإن الكافِر لأنّهُ مُشاق للدّين، هو في شق والإسلام في آخر.

(٩٥) ما حُورِبَتْ قط إلاّ عَادَ مِنْ حَرَبٍ أعدى الأعادي إليها مُلْقي السَّلَمِ

ما حوربتْ آياتُ القُرآنِ إلاَّ وألقى المحاربُ السَّلاحَ وسلم لَهُ ﷺ، إمَّا بدخوله في الإسلام، وإمّا بالكفافة عنها. ولمّا كانتْ آياتُ القرآنِ في أوْج مراتبِ البلاغة، عجزَ الخَلْقُ عن مُعارضتها، وعلى الإتيان بمثلها.

(٩٦) رَدَّتْ بَلاَغتُها دَعْوى مُعارِضِهَا رَدَّ الغَيُورِ يَدَ الجاني عن الحُرَمِ

صرفت بلاغتُها وأبطلتْ أي دعوى لأعدائها، وأشار بذلك إلى مسيلمة الكذابِ، حيثُ عَارَضَ القرآنَ بزعمِهِ النبوة، مما ادعى أن جبريل جَاءَ بِهِ، فقال في معارضته سورة "والنازعات": "والطاحنات طحْنا، والعاجنات عَجْنا، والخابزاتِ خبْزًا" فافتضح، لا باركَ الله فيه.

(٩٧) لَها معانٍ كَمَوْجِ البَحْرِ في مَدَدٍ وفَوْقَ جَوْهَرِهِ في الحُسْنِ والقِيَمِ

إن لآياتِ القرآن معانٍ، والمدد كالمداد، ما يمُد بِهِ الشيء كالحبر للدواة، ويجوزُ كَوْنُهُ من المَدِ المُقابلِ لجزرِ، البحر أي ازديادِه، وأشارَ بِهِ على ما رُوي عن علي كرم الله وجهه "لو شئتَ لأوفرت سبعينَ بعيرًا من سورة الفاتحة" وما حُكي عن بعضهم: "لِكُلِ آيةٍ ستُونَ ألف فَهْمٍ، وما بقي من فهمها أكثر".

وما قالهُ آخر: "أقلُّ ما قيل في العلوم التي في القرآنِ من ظواهِرِ المعاني المجموعة فيه، أربعةٌ وعشرونَ ألف عِلْمٍ وثمانية".

(٩٨) فَما تُعَدُّ وَلاَ تُحصى عجائبها وَلاَ تُسامُ على الإكثار بالسَّأمِ

وإذا كانتْ معاني الآيات كموج البحر، فلا تضم الأعدادُ بعضها إلى بعض، ولا

تعين بالعد غرابتها الرائعة، ولطائفها الفائقة، ونكاتها المبهجة، لعدمِ تناهيها، ولا تمل هي أو ما جاءتْ بِهِ من المعاني، أو ما وَرَدَ فيها من التكرار، سيما القصص.

(٩٩) قَرَّتْ بها عينُ قاريها فقلتُ لـه   لقد ظَفِـرتَ بحبـلِ الله فاعتصِـمِ

حصل بالآيات قرار وسرور لقارئها، لأن عين الحزين مضطربة، وعين المسرور ساكنة، وقد بدت عين قارئها بدمعة الفرح، ولم تسخن بدمعة الحزن، فاسعد أيها القارئ فقد فزتَ بعهد الله، الذي بينه تعالى وبين خلقه.

(١٠٠) إن تتلُهَا خيفةً مِنْ حَر نَـارِ لَظَـى   أطفأتَ حَرَّ لظى مِنْ وِرْدِهَا الشَّبِمِ

إن وِرْدَ الماء يطفىء نار العطش ومرارتها، ووِردَ الآيات يطفىء نارَ جهنم، أعاذنا الله منها.

(١٠١) كَأَنَهَا الحَوْضُ تَبيضُّ الوُجُـوهُ بِـهِ   مِنَ العُصاةِ وقَـدْ جَـاءُوهُ كـالحُمَمِ

إن العصاةَ الذين يَخرُجونَ من جهنم بشفاعة المصطفى ﷺ، تبيض وُجُوهُهُم بشفاعته ﷺ، فيعودون بيضا كالقراطيس، ثُم يدخلون الجنة، وقد أشار بذلك إلى:

ما وَرَدَ من اغتسال أهل جهنم في بحر الحياة.

(١٠٢) وكالصـراطِ وكَـالميزَانِ مَعْدَلَـةً   فالقِسطُ مِنْ غيرها في الناس لم يَقُمِ

إنّهُ دينُ الحق الذي لا اعوجاج فيه، ومراده الصراط، وهو جسرٌ على ظهر جهنم، أدق من الشعر، يسير عليه الناسُ إلى الجنة على قدرِ أعمالهم، وهو خط مستقيم لا عوجاج فيه، وهو مُتلازمٌ مع الحوضِ، إذْ لا يسيرُ على متنِهِ سيْرًا من غير عوج، إلاّ من كان على طريق الاستقامة.

وقد أشار إلى جوَاب عن سؤالٍ تقديره:

إذا كانتْ الآيات بهذه المنزلة، فكيف صح من كثيرٍ من الكفرةِ إنكارُ كونها من عند الله، ودلالتها على صحة نبوة الآتي بها ﷺ؟!

(١٠٣) لاَ تعْجَبَنْ لحَسُودٍ رَاحَ يُنكرُهَا تجاهُلاً وهُوَ عيْنُ الحَاذِقِ الفَهِمِ

والعَجَبُ حالةٌ تعرض للإنسانِ عند الجهل بسببِ الشيء، والحسدُ تمني زوال نعمةِ مَنْ يستحقها، وربما كان في ذلك سعي لإزالتها عنهُ، مع أنه ليس بجاهل، ولكن ثبت أنه من أحسنِ العُقلاء الفاهمين.

(١٠٤) قَدْ تُنكرُ العيْنُ ضَوءَ الشمسِ مِنْ رَمدٍ وينكرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمِ

لقد قام أمام العين مانعٌ من الرؤية من عمى أو غيره، أو رمدٍ أو مرضٍ عارضٍ، على الإدراك الذي فيها يمنعها منه مع قيامه بها.

قال تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس: ٥].

ويقول الشاعر في المعنى نفسه:

ما ضر شمس الضحى في الأفق طالعة

أن ليسَ يرى ضَوءها مَنْ ليس ذا بَصَرِ؟

(١٠٥) يا خَيْرَ مَنْ يمم العافونَ ساحتَه سَعْيًا وفَوْقَ مُتُونِ الأيْنُقِ الرُّسُمِ

يا خير من يأتيه الأشخاص فوق ظهور النُّوقِ، الشديدة الوَطْءِ لقُوتها، حتى أنها رسمَت في الأرض بمشيها آثارًا ظاهرة. كل ذلك لحصول البغية سريعًا، والرجُوع بالحاجة في أسرع وقت.

(١٠٦) وَمَـنْ هُـوَ الآيـة الكُـبرى لِمُعتـبِرٍ ... وَمَنْ هوَ النعمةَ العُظْمـى لِمُغتَـنِمِ

يا مَنْ هو الآية الدالة على عظمة الله، وجزيل مِننه وعطاياه، إذْ لا يُكافؤه أحد من الممكنات، في شيء من كماله الشاهِدِ للمتأمل والمتذكر، فالله تعالى يعلم أنه ﷺ خيرُ خلقِ الله ... قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وتخصيص المؤمنين بالذكر لكمالِ انتفاعهم بِهِ.

وقال جَلَ شأنُهُ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

(١٠٧) سَريْتَ مِـنْ حَـرَمٍ لَـيْلاً إلى حَـرَمٍ ... كَما سَرى البَدْرُ في دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

أسرى به الله تعالى، من حرم مكةَ في جُزءٍ من الليل، فقد قطع مسيرة ثمانين ليلة في بعض ليلة، وكانَ بقية الليل لعروجِهِ إلى السَّبع العُلى، وتلقيه من العلي الأعلى الأحكامَ التكليفية، وكانَ إسراؤهُ إلى بيت المقدس، فهو ﷺ نورٌ مبين كالبدر وأعظم، وكانَ الإسراء على البُراقِ.

(١٠٨) وَبِـتَّ تَرْقـى إلى أنْ نِلْـتَ مَنزِلَـةً ... مِنْ قابِ قوسينِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُـرَمِ

وفي ليلة إسرائك إلى الأقصى، رُقيت إلى أن بلغت سَماءَ الدنيا، وهكذا إلى السماء السابعة إلى أن بلغت منزلة شريفة، محلَّها من المكانِ الذي شرَّفه الله تعالى كالعرش وغيره، ممّا لم يُقدَّرْ لبشرٍ سواهُ الوصُول إليه من مقدارِ قابِ قوسين، وهو كناية عن غاية القُربِ.

(١٠٩) وقَــدَّمتكَ جميــعُ الأنبيــاءِ بِهــا والرسلِ تقديمَ مخدومٍ على خَـدَمِ

صَيَّرتك الأنبياء مُقدمًا بين يديها، بسبب تلك المنزلة، تقديمًا مثل تقديم الخَدَمِ للمخدُوم، وهو الرئيسُ على أتباعِهِ. ويُحتملُ تقديمهم له ﷺ في الصلاة بهم إمامًا... وهي حالةٌ خارقة للعادة.

(١١٠) وأَنْتَ تخترقُ السبعَ الطباقَ بِهِمْ في موكبٍ كُنْتَ فيه صاحِبَ العَلَمِ

وأنت تخترق السموات السبع الطباق، وذلك على عادة العرب، في إعطاءِ الراية لزعيمِ القومِ ورئيسهم، الذي بثبوته يثبتونَ، وبانهزامه ينهزمون، مثلما قال النبي ﷺ في حق علي كرم الله وجهه:

(لأعطين الراية غدًا رَجُلاً يحبُ الله ورسُولَهُ، ويحبه الله ورسُولُه) ثم قال ﷺ: (يفتحُ اللهُ على يديه).

(١١١) حَتَـى إذَا لَمْ تَـدَعْ شَـأوًا لِمُستَبِقٍ مِــنَ الـدُّنُو وَلاَ مَرْقــىً لمُســتَنِمِ

الدُّنُوُّ هُنَا معنويٌ، أي من الرفعة إلى مقام لم يصله ولا يطلبه غيرُك.

(١١٢) خَفَضْتَ كُـلَّ مَقَـامٍ بالإضَـافة إذْ نُوديتَ بالرفعِ مثـل المفـرَدِ العَلَـمِ

إن النبي ﷺ - وإنْ اشتركَ هو والأنبياءُ في أصل النبوة- إلاّ أنه امتاز عليهم، بنداءِ رفعه لهذا المقام، ما ارتفعتْ به منزلته على مشاركيه من الأنبياء والرُّسُل، فانفرد عنهم برفعة منزلته، وخفض منازلهم، بالنسبة لمنزله.

(١١٣) كَـيْما تفـوزَ بوصـلٍ أي مُسـتَترٍ عِــنِ العُيُــونِ وَسِرٍّ أي مُكتَـتَمِ

كي تفوزَ بالمقام الذي رفعَكَ إليه، والمنزلة التي أحلك، ودعاك لصعودها،

وذلك الوَصْلُ مستترٌ عن العُيُونِ، وتظفر بسرٍ من أسرار إلهكَ أوحاه إليك في ذلك المقام، وقد استتر عَنْ أعينِ معاصريه، لأنّه كانَ ليلاً، وقد نامتْ العُيُونُ، وهدأتْ الأصوات، وعن سائر الأنبياء والرسُلِ والملائكة، فلأنه مقامٌ لا ينبغي لغيره الوصول إليه، ولعل السر المكتومَ لم يَبينه ﷺ، إذْ لا يطيق حَمْلَهُ غيرهُ وقد روى ابن عباس رضى الله عنهما عنه ﷺ أنه قال:

(عَلَّمني ربي ليلة الإسراء عُلومًا شتى، فَعلمٌ أَخَذَ عليَّ كتمانَهُ، وعلمٌ خيَّرني فيه، وعلمٌ أمَرَنِي بتبليغه).

(١١٤) فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرَ مُشْتَرَكٍ ... وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرَ مُزْدَحَمِ

لقد حزتَ ونلْتَ كل تعظيم، غير مشترك بينَكَ وبين أحَدٍ منهم، وتجاوزْت كُل مقامٍ من مقاماتِ كمالِ الممكناتِ.

(١١٥) وَجَلَّ مقدارُ ما وُليتَ مِنْ رُتَبٍ ... وَعَزَّ إدراكُ ما أُوليتَ من نِعَمِ

عَظم مقدارُ ما وَلاكَ الله من نِعمٍ، وعزَ مقدارُ ما أعطيت من ربكَ من مقاماتٍ عليَّةٍ.

(١١٦) بُشرى لَنَا معشَرَ الإسلام إن لَنَا ... مِنَ العنايةِ رُكْنًا غيرَ منهدِمِ

بشرى لنا جماعة الإسلام، الدين الحنيفي، وهو وضْعٌ إلهي، سائقٌ لذوي العقول باختيارهم المحمود، إلى ما فيه نفعهم بالذاتِ دينًا ودُنيا، وقد سُمي إسلامًا، لاستسلامِ الناسِ لَهُ، ودينًا لأنهم يدينُون به، أي ينقادونَ، وسُمي شريعة لأنهم مجتمعون عليه كشريعة الماء، وملَّة لأنه يُملى، وعلل ذلك على طريقة الاستئناف البياني، بقوله: "إن لنا من العناية بجعلنا من أتباعه ﷺ، رُكنا قوي الأساس والبناء، لا يُهانُ مَنْ لاَذَ بِهِ ولا يُضامُ، فإنه حصنٌ وعزٌّ مكينٌ.

ومن البُشرى لنا معشر الإسلام، ما ورد في بعض أخبار الإسراء: أنه ﷺ لما كان بمقام قاب قوسين، قال: (اللهم إنَّكَ عَذَّبْتَ الأمم، بعضَهم بالحجارة، وبعضَهم بالخَسْف، وبعضهم بالمسخ، فما أنتَ فاعِل بأمتي؟

قال تعالى: أنزلَ عليهم الرَّحمة، وأبدِّلُ سيئاتهم حَسَنَات، ومَنْ دعاني منهم لبيته، ومن سألني أعطيته، ومن توَّكل عليَّ كفيته، وفي الدنيا أسْتُرُ على العُصاة، وفي الآخرة أشفعك فيهم، وَلَوْلاَ أن الحبيب يُعاتب حبيبه لما حاسْبت أمتكَ).

ولما أراد ﷺ الانصرافَ، قال:

(يارب، لكل قادمٍ من سفر تحفةٌ، فما تحفةُ أُمتي؟

قال الله تعالى: إنَّا لهم ما عاشوا، وإنَّا لهم إذا ماتُوا، وإنّا لهم في القبور وإنَّا لهم في النشور).

فركننا غير منهدم في حياتنا ولا مماتنا ولا في بيوتنا، ولا في قبورنا، ولا في سكوننا، ولا في نشورنا، بفضلِ ربنا تبارك وتعالى.

(١١٧) لـمَّـا دَعَـا اللهُ داعينـا لطاعتـه ... بِـأكْرَمِ الرُّسُـلِ كُنَّـا أكـرمَ الأُمَـمِ

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

فهي مستلزمةٌ لَهَا لأنها مأمورٌ بها، فقد سمى الله تعالى نبيه محمدًا أكرمهم عنده، كُنا نحن الذين هم أمتُهُ أكرم الأمم عنده، على الإطلاق، لأن أكرم الرسل لا يبعثُ إلا إلى أكرمِ الأمم، فجميع من بُعث إليهم ﷺ خيرُ الأمم، مؤمنهم خيرُ المؤمنين، وكافرهم خير أمم الكافرين. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولذا ارتفع عنه المسخ والخسف وغيرهما، مما حل بالأمم قبلهم.

ويجاب على قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣].

فإنه على سبيل الإنكار، يُرد: كون كُفار هذه الأمة خيرًا من كفار غيرها، فإن المُراد كُفار قريشٍ خاصةً، لزيادةِ طغيانهم، أو المُراد أن يكونوا خيرًا منهم في القوةِ.

(١١٨) رَاعَتْ قُلُوبَ العِدَا أنبـاءُ بعثتـه كَنبأةٍ أجفَلَتْ غُفْـلاً مِـنَ الغَـنَمِ

فزعت قلوب الأعداء من أخبار بعثته ﷺ التي صدرتْ من الكهانِ والمُنجمين قبل مبعثه ﷺ، وبعده، لما كانُوا يسمعون أن دينه سيظهرُ على كل دين، ويُذل كل جبار عنيدُ، وقد شبه البوصيري قلوب العدا بطائفة من الغنم، وخبر رسالته ﷺ بصحبة مفزعة، في إرعاب شيء بوصول صوب، وفي جعل المُشبه به طائفة من الغنم، مضاعفةُ في ضعف العدا وعجزهما، إذ الغنم أضعف الحيوانِ وأعجزُه.

(١١٩) مَـا زَالَ يلقـاهُمُ في كُـلِ مُعـتَرَكٍ حتى حَكَوا بالقَنَا لحمًا على وَضَـمِ

ما زال ﷺ يلقى الأعداء فيطعنهم في كل معركةٍ وقعتْ بينه وبينهم، وذلك بنفسه تارة وبخيله ورجلهِ تارة أخرى، وظهر عليهم آثار طعناته دماء، فقد قاتلهم النبي ﷺ حتى تركهم مُعدّين لأنْ تأكُلَ السِّباعُ والطيورُ لحومهم.

(١٢٠) وَدُّوا الفِرارَ فكـادوا يغبطُـونَ بِـهِ أشلاءَ شالَتْ مع العِقبانِ والـرَّخَمِ

أحبُّوا الفِرارَ فتمنُّوا ما لا يتمنى غيرُهم، ومن أقبح الخصال عند العربِ وأذمها الفرار من الزحف، إذْ هو شأن اللئام الخُبثَاءِ، الذين يتمنون الارتفاع في الجو فزعًا من القتال، فحالتهم حالة أعضاء من اللحم، لا حِراكَ لها إلاّ بحمل غيرها لها.

(١٢١) تمضـي اللّيالي وَلاَ يدْرون عِـدَّتهَا   مَا لَمْ تَكُنْ مِنْ ليالي الأشـهرِ الحُـرُمِ

تمر عليهم الليالي على غير قياسٍ، وكذلك تمضي الأيامُ ولا يعرفونَ عددها لكثرتها، إن لم تكن من ليالي الأشهر الحُرُمِ، فإنهم يدرُون ذلك منها، لأمنهم فيها من طلب المؤمنين إياهُم فيفيقون من سكرة الخوف، وترجعَ إليهم عقولَهم، فيدْرونَ عَدَد الماضيات.

(١٢٢) كأنما الدينُ ضيفٌ حل ساحتَهُم   بِكُـل قَـرْمٍ إلى لَحـمِ العِـدَا قَـرِمِ

الإسلامُ عندهم كضيفٍ نزلَ في حريم أهل الإسلام المتدينين به، بِكُل بعيرٍ لم يُذلل لغاية عزته ونجابته، ثم استُعير لأصحاب رسول الله ﷺ، وكأنهم من شدة ما حل بهم من القتل جُزر نُحرتْ وقُطعتْ أعضاء، لتطبخ للضيفان الذين اشتهوا لحمها، وهذا الضيف المشبه به سيدٌ من السادات، ولذا نَزَلَ مع أمثاله.

(١٢٣) يجُرُّ بَحْـرِ خَمِيسٍ فَـوْقَ سَـابحةٍ   يرمي بموجٍ مِنَ الأبطـالِ مُلْـتَطِمِ

سُمي خميسًا لأنه خمسة أجزاءٍ؛ مقدمة، وقلب، وميمنة، وميسرة، وساقةٍ، هذا الجيش ملتطم بجيش من الأبطال، وهو هائج، وكأنه فرسٌ حسنة الجري، لا تُتعب راكبها، كأنها تجري في الماء.

(١٢٤) مِـنْ كَـلِّ منتـدبٍ لله مُحتسِـبِ   يسطُر بُمستأصل للكفر مُصطَلَمِ

إنّ كل بطلٍ مدعوٍ لله، مجيب لدعائه ولدُعاء رسوله ﷺ إلى قتال الكُفَّار محتسب أجره فيما يناله من موْتٍ أو دونه على الله تعالى، يقهر الكفر فيقطعه من أصلهِ، وهو هُنا يُعرِّض بآلة حربهم، كما عرض قبل ذلك بخيلهم.

(١٢٥) حَتَى غَدَتْ ملَّةُ الإسلامِ وهي بهم مِنْ بَعْدِ غُرْبتها موصولَةَ الرَّحِمِ

حتى صارت ملَّة الإسلام التي تُملى من السَّماءِ، بهؤلاء الصحابة الأبطال، موصولة الرحم، فانتقلت من الذل إلى العز.

(١٢٦) مكفولَةً أبدًا مِنهم بخيرِ أبٍ وخيرِ بَعْلٍ فَلَم تَيْتَمْ ولَم تَئِمِ

هذه الملةُ محفوظة أبدًا بحماية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، لقيامهم بحفظها ونصرتها وذلك لوُجود أبيها الذي كان سببًا في إيجادها وإصلاحها، وهو النبي ﷺ، فإن الدينَ منْهُ نشأ، وبه ارتفع، ولم تصرْ أيما، وهي التي لا زوج لها لوُجودِ بعلها، والمُرادُ أيضًا هو ﷺ ، إذ هو القائم بأمرها المُعتني بصلاحِها، المجتهد في تقويتها.

(١٢٧) هُمُ الجِبالُ فسَلْ عنهُم مُصادِمَهم ماذا رأى مِنْهُمُ في كل مُصطَدَمِ

إن هؤلاءِ الصحابة كالجبال الراسخةِ، التي أرسى الله بها الأرض من بعد ما كانت تميدُ وتتكفأ، فرسخت وانتفع الناسُ بها، فالصحابةُ ومَنْ بعدهم من علماءِ الإسلامِ والصالحينَ من أولياءِ الله الصالحينَ، جبال أرض ملَّة الإسلام، بهم سكنتْ بعد تزلزُلها، واطمأنت بعد تقلقلها، فاسأل عنهم مَنْ صادمهمُ من أعدائهم:ما الذي رأوهُ منهم؟

(١٢٨) وَسَلْ حُنينًا وَسَلْ بدْرًا وسَلْ أُحُدًا فُصُولُ حَتفٍ لهم أدهى من الوَخَمِ

اسأل عنهم حنينًا، وهو وادٍ بين مكة والطائف، واسأل بَدْرًا، وهو ماءٌ بينه وبين المدينة ٢٨ فرسخًا على طريق مكة، كانت عنده وقعة بدْرِ الكُبرى، واسأل أُحُدًا، وهو الجبل المعرُوف بالمدينة، كانت كُلَّها أزمنةَ موتٍ للكفارِ أكثر من زمنِ الوباءِ، فاسأل أَهْلَ تلك الوقائع أو مؤرِّخيها.

(١٢٩) المُصْدري البيضِ حُمرًا بعدَما وَرَدَتْ مِنَ العِدَا كُلَّ مسودٍّ من اللمَمِ

الذين حولت سيوفهم البيضاء مواقع الجسم البيضاء إلى حمراء بالدم الذي أريق عليها، فقد شبه السيوف بإبل بيض، أوردت ينبوعًا أسود يجري بماء أحمر، ثم أصدرتْ وقد عادت بعد بياضها حُمرًا، من تلبسُها بذلك الماءِ الذي وَرَدَتْهُ.

(١٣٠) والكاتبينَ بسُمرِ الخطِّ ما تركَتْ أقلامُهم حَرْفَ جِسْمٍ غَيْرَ منعَجِمِ

الطاعنونَ بالرماح، المشبهة بأقلام الكُتَّاب، والخطُّ، وهو خَطِ هجر، موضع باليمامة وهؤلاء لا يطعنون إلا في محل الطعن، ولا يُخط حرفٌ إلا بما يستحق، وأنهم أعجموا حروف جسم العدُو.

(١٣١) شاكي السلاحِ لَهُمْ سِيَما تُميزُهُمْ والورْدُ يمتازُ بالسِّيما عنَ السَّلَمِ

شاكي السلاح، تعبير عن قوة شكيمتهم، لهم صفاتٌ ظاهرةٌ تميزهم:

١ - إما لأنهم ركعا سُجدا: ﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح: ٢٩].

٢- أو غيره من حميد صفاتهم، وهذه الصفات خفية لا يفطن لها إلا الأذكياءُ، كالورد يمتاز برائحته من السلم، وهو نبات ليست لهُ رائحة تُذكرُ.

(١٣٢) تُهدي إليكَ رياحُ النصر نشرَهُمُ فَتَحْسَبُ الزَّهْرَ في الأكمامِ كُلَّ كَمِي

تهدي وترسل إليك رياح الغلبة على العدو رائحة الطيب الذي يمتازون بِهِ، فتحسَبُ الزَهْرَ حَالَ كونِهِ في الأكمامِ، أي الأغلفة، وذلك لمنْ شافههم.

(١٣٣) كأنَهُمْ في ظهورِ الخيلِ نبتُ رُبًا مِنْ شدَّةِ الحزمِ لاَ مِنْ شدَّةِ الحُزُمِ

إن الفرسان وهم على ظهُورِ الخيْل، كنباتِ الأرض، الذي لا ساقَ لَهُ، كالذي

انتفخ وارتفعَ وطابَ منَ الأرض، والتشبيه بذلك في بهاء المنظر، وحسن المخبر، والثبات والاستقرار، وهم ثابتون على ظهور تلك الخيل، يتحركونَ تحرُّكَ زهر الرُّبا.

(١٣٤) طارت قُلُوبُ العِدَا مِنْ بأسِهِمْ فَرَقًا فَـمَا تُفـرِّقُ بـيْنَ الـبَهْمِ والـبُهَمِ

انزعجت قلوبُ الأعداءِ وارتاعتْ من شدَّتهم وثباتهم عند لقاءِ العدوِ، والفرق واضحٌ كما هو بين أولادِ الضأنِ وبين الشجاع الفارس، فإن حال العِدا مع كمالِ هيبتهم وقُوةِ صَوْلَتهم، ونصرةُ الصحابة ﷺ إنما هي برسولِ الله ﷺ.

(١٣٥) وَمَنْ تكُـنْ بِرَسُـولِ الله نُصْـرَتُهُ إنْ تَلْقَـهُ الأُسْـدُ في آجامِهَـا تَجِـمِ

إن النصرة، وهي العون التام، من رسولِ الله ﷺ للمسلمين تجعل الأسُودَ تخشاهُ على نفسها... وفي الأثر: "مَنْ خَافَ الله خَوَّفَ الله منْهُ كُلّ شيءٍ".

وفي الحديث: كُنا نتقي برسُولِ الله ﷺ إذا اشتدت الحرب، ولذلك فإن المستنصر برسولِ الله ﷺ، إن أحسَّ به الأسد وجَمَ وسكن ولزم بيتَهُ، وفي رواية سُفينة مولى رسول الله ﷺ الكفاية، إذ قال: "حُبِسْتُ في جزيرة ليس عليها أحدٌ وفاجأني أسدٌ فنظرتُ إليه وقُلْتُ: "أنا سُفينة مولى رسُول الله ﷺ". فحملني على ظهره حتى أوصلني لمكانٍ آمين ثم انصرفَ".

(١٣٦) وَلَنْ تَرى مِـنْ وَلِيٍّ غَـيْرِ مُنتصـرٍ بِـهِ وَلاَ مِـنْ عَـدُو غَـيْرِ مُنقَصِـمِ

ولن ترى من أحد أوليائه ﷺ، وهو كُلُّ من آمن به واتبع سُنَّته وطريقته، غير منتصر به على عدوه، ولا ترى من عدوٍ لَهُ من الكُفَارِ، غير منقصمٍ به ﷺ.

(١٣٧) أَحَـلَّ أُمَّتَـهُ في حِـرْزِ ملتِـهِ كالليثِ حَلَّ مَعَ الأشبالِ في أَجَمِ

أنزَلَ النبى ﷺ أُمَّتَهُ في حفظ ملته وشريعته، التي هي كأعظم الحُصُونِ عِزَّةً ومنعةً،

فلا يدخُلُها غير أهلها، وجعلها في موضعٍ حصينٍ كالأسد، نزلَ مع صغاره في غابة ملتفة الأشجار، فهو ﷺ بمثابة الليث، وأمته بمثابة الأشبال، ودين الإسلام بمثابة الأجمِ.

(١٣٨) كَمْ جَدَّلَتْ كلِماتُ اللهِ مِنْ جَدِلٍ ... فيه وكم خَصَمَ البُرْهانُ من خَصِمِ

كم صرعت كلماتُ الله تعالى وقطعت مَنْ هو شديدُ الخُصومة، أحكم الخصومة في الجدل، وكم غلب بأدلته القاطعة وبراهينهِ الساطعة.

(١٣٩) كَفَاكَ بالعلم في الأُمي معجزةً ... في الجاهليّة والتأديبِ في اليُتُمِ

كفاكَ أيها الصالح للخطاب بالعلمِ في الشخص الأُمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يعلم لَهُ من مُعَلم، ووصفُهُ بالأمية مع كمالِ علمه وغاية معرفته إيماءً إلى أنه أبلغ معجزاته، ثم يضافُ إلى علمه ﷺ، وما فيه من التأديبَ وهو تهذيبَ الظاهر والباطن ولا يكونَ إلاَّ بتكامُلِ مكارِمِ الأخلاقِ... قال ﷺ: "أدبني رَبي فأحْسَنَ تأديبي".

واليتيمُ في النَّاسِ مَنْ فقد الأبَ، وهو ﷺ ماتَ أبوه وهو حَمْلٌ في بطنِ أُمه، وشأن اليتيم غالبًا أن لا يكونَ فيه من الآداب ما يكُونَ في ذي الأبِ، دَلَّ ذلك على أنه ﷺ رسول الله حقًا.

(١٤٠) خَدَمْتُهُ بمديحٍ أستقيلُ بِهِ ... ذُنوبَ عُمْرٍ مضى في الشعْرِ والخِدَمِ

خدمتُ رَسُولَكَ يا ربِ، أطلُب بِهِ إقالتي من ذُنُوبِ عُمْرٍ مضى في نظم الشعر، مدْحًا في الناسِ وخدمتهم بما ليس في طاعةِ الله تعالى، وهو إنْ كانَ مباحًا إلاَّ أن:

"حسنات الأبرار سيِّئاتُ المُقرَّبين".

(١٤١) إذْ قلَّدَاني ما تُخشى عواقبه ... كأنني بهِما هَديٌ مِنَ النَّعَمِ

لقد جعل الشعرُ والخدم في عُنُقي من الآثامِ ما هو كالقلادة، وكأنني بالتقليد بهما

الهدي الذي يُساق إلى البيت الحرام من الإبل والبقر والغَنَمِ، فلا يخفي لذلك استحقاقي العقاب، بما مدحتُ بِهِ غيرَهُ ﷺ من أهلِ الدنيا.

(١٤٢) أطَعْتُ غَيَ الصّبا في الحالتينِ وما حَصَلتُ إلا على الآثامِ والنَّدَمِ

لقد انقدتُ لضَلالِ وزَمَنِ الصِّبا في حالةِ مُدحي لغيره ﷺ وخدمتي لَهُ، وما حصلت إلا على الآثام والذُنوب والندمِ على ما صَدَرَ مني، ولم أوفق إلى الطاعة، لأنّ التوفيق من الله وَحْدَهُ.

(١٤٣) فياخَسَارَةَ نَفْسٍ في تجارتها لَمْ تَشتَرِ الدِّينَ بالدُّنيا وَلَمْ تَسُمِ

الخسارة والخُسْران نقصان رأس مالِ التجارة، وهي تقليبُ المالِ طلبًا للربح، فمنَ عَدَلَ عن العظيم القدْرِ الباقي، إلى الحقير الخسيس الفاني، فهو الخاسِر، حقًا، إنّ نفسِي تمكنتْ من أخذِ الدينِ، وأعطيت الدنيا، وما بالغتْ في المُبايعةِ والمُساومةِ.

(١٤٤) وَمَنْ يبع آجِلاً منْهُ بعاجِلِهِ يبِنْ لَهُ الغَبْنُ في بيعٍ وفي سَلَمِ

مَنْ يبع نعيم الآخرةِ الباقية أبدًا سَرمدًا بمتاعِ الدنيا الفاني يظهر لَهُ أنّهُ خُدِعَ في بيعِ عاجِلٍ وفي البيع الآجِلِ.

(١٤٥) إنْ آتِ ذَنْبًا فَمَا عهدي بمُنتقضٍ مِنَ النّبي ولاَ حَبْلي بِمُنصَرِمِ

إن آت ذنبًا رجوتُ غُفرانَهُ، فإن عهدي ليس بمنتقضٍ من النبي ﷺ، لكمالِ كرمه وعَدَم تطرُّقِ الخُلفِ لوعده.

(١٤٦) فإنَّ لي ذمَّةً منْهُ بتسميتي مُحَمّدًا وهُو أوْفى الناسِ بالذِّمَمِ

وإنْ لي أمانٌ وعهدٌ منه ﷺ بتسميتي مُحَمّدًا كتسميته بذلك، فتشريفي بالتحلية

بهذا الاسم دليل العناية، وإذْ شرفتُ بهذه الخلعة، فلا أخافُ، وكيف أخافُ وهو ﷺ أوْفى الخلْقِ بالذِّمم، وهي العُهُودُ، لأَنَّهُ قادرٌ على تخليصي بالشفاعة التي أُذنَ لَهُ أن يشفعَ بِها في محبيه المؤمنين.

(١٤٧) إنْ لَمْ يكُنْ في معادي آخذا بيـدي ... فَضْـلاً وإلاّ فَقُـلْ يـا زَلَّـةَ القَـدَمِ

إن لم يكُن النبي ﷺ في مرجعي بعد الموت آخذًا بيدي فَضْلاً منْهُ، لاَ لسابقةٍ مني أستحقُّ بها ذلك، وإلاَّ فقل يا زلة القدمِ.

(١٤٨) حَاشَاهُ أَنْ يحرِمَ الرَّاجِـي مكارمَـهُ ... أَوْ يرجِعَ الجارُ منْـهُ غَـيْرَ مُـحْتَرَمِ

حاشا رسول الله ﷺ أن يحرم الراجي فيه مكارمَهُ، أو أن يرجع النزيلُ منه غير محترمٍ، فكل القاصدين يرجعون منه بقضاء حوائجهم وجبر خواطرهم.

(١٤٩) ومُنْذ أَلْزَمْـتُ أفكـاري مَدَائحَـهُ ... وَجَدْتُـهُ لِخَلاَصي خَـيْرَ مُلتـزِمِ

ومنذ التزمتُ مدائحه بأفكاري في الدنيا متوسلاً بها في مطالبي العظيمة، كطلبي الخلاص من الدَّاء الذي لا يقدرُ على دفعه إلا الله، ببركة سيدنا محمد ﷺ، وجدتُهُ ﷺ لخلاص خير مُلتزمِ.

(١٥٠) وَلَنْ يفُوتَ الغِنى منْهُ يـدًا تربَـتْ ... إنّ الحيا يُنبتُ الأَزْهـارَ في الأَكَـمِ

إنّهُ ﷺ لعُلُو منزلتهِ وشرف قدره عند ربه، يُنيل الغنى من لا يظن أنه يستغني لشدة فقره وفاقته.

وهذا التشبيه إنما هو تقريبٌ للأفهامِ، فقد شبه ألطافه ﷺ الجسيمة العميمة بالمطرِ المباركِ والعام، وما يُفيضُ عليهم من لحظاته الدنيوية والأخروية بنَور النبات،

والمُذنبَ الذي يبعُدُ نيلهُ مطلوبه لولاءِ كمالِ وساطته ﷺ بالأكم الذي يبعُدُ فيه في العادةِ إنباتُ النورِ.

(١٥١) وَلَمْ أُرِدْ زهرةَ الدنيا التي اقتطفَتْ يـدَا زُهـيرِ بِـمَا أَثْنـى عـلى هَـرِمِ

ولم أُردْ بذلك المَدْحِ نَضَارَةَ الدنيا من المال وغيره التي اقتطفت يدا زهير بن أبي سُلمى الشاعر المشهور، والدُ كعب صاحب "بانتْ سعاد" وهرم أحد أجواد العرب وهو أبو سنان بن أبي حارثة المُري، وكان يصلُ زُهيرًا بالصلاتِ الجزيلةِ الخارجة عن العاداتِ.

(١٥٢) يا أكْرَمَ الخلق مَالي مَنْ أَلُـوذُ بِـهِ سِوَاكَ عنْدَ حُلُولِ الحَادثِ العَمِمِ

ينادي رسولَ الله ﷺ طالبًا منه النظر إليه لأنه محتاجٌ لـذلك دُون النظـر إلى جميـع المخلوقين، وذلك عندما يقع الحدث العظيم الذي تُخشى عواقبه.

(١٥٣) وَلَنْ يَضيقَ رَسُولَ الله جَاهُـكَ بي إذا الكـريمُ تجـلَّى بِاسْـمِ مُنـتقِمِ

إنَّ سُؤالَ الشفاعة وطلب المعُونة ممَّن نُعتَ بكونِهِ رسولَ الله، أبلغ للقبولِ وأنجع في حُصُولِ المأمُولِ لقدْرك ومنزلتك الرفيعة، وذلك باسْمِ "مُنتقم" وذلك حين الانتقامُ من العُصاةِ، فكُلٌّ يقول: (نفسي، نفسي) ورسُولُ الله ﷺ يقول: (أمتي .... أمتي).

(١٥٤) فَإن مِـنْ جُـودِكَ الـدُّنيا وضَرَّتَهَـا وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللَّوْحِ والقَلَـمِ

إن منْ بعض جُودك الدنيا والآخرة، إذْ لَولاَهُ ﷺ ما ظهر الوُجُودُ، فـإنْ الخمْـسَ التي استأثَرَ بعلمها اللهُ تعالى ليستْ مكتُوبة في اللوْح المحفُوظِ، وبعضُ عُلُومه ﷺ علـم اللَّوْحِ والقَلَمِ الذي يطلعُ عليه المخلُوقُ.

(١٥٥) يَا نَفْسُ لاَ تَقْنَطِي من زَلَةٍ عَظُمتْ إنَّ الكَبَائر في الغُفرَانِ كَاللَّمَمِ

لا تيأسي يا نفسي من عدم غفرانِ ذُنوبك وزلاتك مهما كان عِظَمُها، فإنّها في جانبِ الغُفرانِ منْهُ سُبحانَهُ كصغَائِر الذنُوبِ، لأنّه جل شأنُهُ يعفو عن الصغائر باجتنابِ الكبائر، فكذا يعفو عن الكبائر إن شاء بفضله وشفاعة نبيه ﷺ، وجَواز العفو عنها كاللَّمِ وهي صغائرُ الذنُوب، كمذهب أهل الحق، وهو ما دَلَّ عليه الكتابُ والسُّنةُ.

(١٥٦) لَعلَّ رَحمَةَ رَبِّي حينَ يقْسِمُها تَأتي على حَسَب العصيانِ في القِسَمِ

إنْ الرّحمَةَ المُعدّة لستر ذُنُوبِ العُصاةِ، إذا وُزِّعَتْ عليهم تأتي أقسامُها في العظم والصّغر على قدْر العصيانِ الصادر منهم في القسم، ممنْ حَمل من المعاصي كثيرًا، كانَ ما ينالهُ من أقسام الرّحمَةَ السَّاترة للمعاصي كثيرًا.

(١٥٧) يا رَبِّ واجْعلْ رجائي غيرَ مُنْعكسٍ لديْكَ واجعل حِسَابي غيرَ مُنخَرِمِ

اللَّهم حقق ظَني، واسمعْ دُعائي، واجعلْ رَجَائي في العفو والفضلِ غير مُنعكسٍ عندكَ يوم القيامة، واجعل حسابي سهْلاً يسيرًا، بما أمْلتُهُ من بحر الكَرَمِ، فأكرمني بالنَّبي ﷺ.

(١٥٨) والْطُفْ بعبدكَ في الدَّارَيْنِ إنّ لَهُ صَبْرًا متى تَدْعُهُ الأهْوَالُ ينْهَزِمِ

والْطف بعبدك في الدنيا والآخرة، فإن لهذا العَبْدِ صبْرًا، حين يُلاقي الأهوالَ يُوَلي ويذهب ولاَ يبقى منْهُ بقية.

(١٥٩) وائْذَنْ لسُحبِ صَلاَةٍ منكَ دائمـةٍ عَـلَى النّبـي بِمُنْهَـلٍّ ومُنْسـجِمِ

أنزل على نبينا محمدٍ ﷺ، مطرًا مُنْهلاً من الصّلواتِ، فتنصَبُّ عليه ﷺ، وقد شبه الصّلاة عليه ﷺ بالمطر، لأنّها منه سُبحانَهُ وتعالى رحمة على نبيه ﷺ، والمطرُ رحمةٌ.

(١٦٠) مَا رنَّحتْ عَذَباتِ البَانِ ريحُ صَبًا وأَطْرَبَ العِيسَ حَادي العِيسِ بالنَّغَمِ

ما أمالَتْ أطرافَ شجر البانِ ريحٌ شرقيةٌ، وهي التي يُقابل بهوبها باب الكعبة، والإبل البيض أيضًا، رمزٌ لعمرانِ القلْبِ بذكر الأحبّة أولاً وأخيرًا.